يتألف البناء من فناء مربّع، تُحيط به (٤) إيوانات. ويتوسط المدخل الواجهة الشمالية الشرقية، وتعلوه لوحة نُقشت عليها (٣) أسطر بخطّ نسخي يذكر أمر تشييد البيمارستان، وقد غطيت دخلة المدخل بنصف قبة من المقرنصات، لكن بوابته مهمة جداً بتصميمها المتميز، فهي ذات إيوان معقود بالمقرنصات، وعقود حجارتها معشقة بلونين بالتناوب، ولبعضها شكل الشرافات. الشكل(١٠٢)

٥. قلعة دمشق:

قلعة من (٣) قلاع؛ أقامها الملك العادل محمد ابن أبي بكر بن أيوب شقيق صلاح الدين الأيوبي وخليفته على أنقاض قلعة سلجوقية قديمة عام/٤٦٩هـ/١٠٧٦م/، وكانت قلعة مهمة استفاد منها السلطان نور الدين محمود زنكي و السلطان صلاح الدين الأيوبي في الدفاع عن دمشق ضد تهديد الصليبيين سنة/٥٤٢هـ/١١٤٨م/، وفي دعم منعة الحكم وسياسة البلاد، ثم وهنت، وهُدّمت بسبب الزلازل والحروب، وقد تمّ الكشف عن أقسام كثيرة منها عندما تم ترميمها سنة/١٩٨٥/، وتُؤكد وجود القلعة السلجوقية أقوال المؤرخين، وما تبقى من منشآت أهمها البرج الشمالي الذي جدّده صلاح الدين عام/٥٨٥هـ/١١٨٨م/، كما ورد في الكتابة عليه، وفيها دُفن أولاً نور الدين، وثانياً صلاح الدين، ثم نُقل جثماناهما إلى قبريهما في دمشق القديمة.

وقد بدأ الملك العادل العمل على بنائها عام/٥٩٩هـ/١٢٠٢م/ بهدم القلعة السلجوقية، وبإقامة القلعة الجديدة بدلاً منها؛ لتكون أكثر قوة وحصانة، ولتُناسب ظروف العصر[٣٩٦]، ومن ثم هي قلعة أيوبية، وقد قام المماليك والعثمانيون فيما بعد بإجراء بعض الترميمات والإضافات التي تشهد الكتابات عليها اليوم. تمّ تشييد القلعة برجاً برجاً، وقد أسهم أولاد الملك العادل بهذا العمل، وكان أول برج أُنشئ عام /٥٩٨هـ/١٢٠٢م/ هو البرج الجنوبي الغربي الذي تهدّم عام /١٢٨٠هـ/١٨٦٢م/، واستغرق بناء الأبراج والأسوار /١٥/ عاماً، وهي مبنية من الحجر الأبيض البارز، وعند الترميم اللاحق استُعملت أحجار منحوتة وغشيمة (حجر غير منحوت وغير متناسق الجوانب) أصغر حجماً[٣٩٧].

كانت القلعة مرئية من جميع جهاتها؛ إذ كان الخندق وجيبة جيدة تُحيطه مناطق وطرقات خالية:

ففي الشمال كانت منطقة أصبحت سوقاً للسروجية الذي هُدم قسم منه عام /١٩٧٠/. وفي الغرب كان طريق يوازي الخندق، وصفه (بورتر) عام /١٨٥٠/، ثم رُدم، وأُنشئ سوق الخجا. وفي الشرق رُدم الخندق في أواخر العصر العثماني، وأقيم فوقه سوق العصرونية الذي أُزيل عام /١٩٨٣/، والتصقت بجدار القلعة محلات تجارية باستثناء باب القلعة الذي أصبح باباً للسجن، وقد أُزيلت هذه الدكاكين في نهاية عام /١٩٨٣/. وفي الجنوب كان سوق الأورام يحاذي الخندق، ويترك مجالاً لظهور أجمل واجهات القلعة،

٣٩٦- الريحاوي، (عبد القادر)، قلعة دمشق، منشورات القوات المسلحة، دمشق، /١٩٧٩/، ص/١٠٠/.

397- Chevedden P. E.، **The Citadel of Damascus**, UCLA, /1986/, p/55/.

إلى أن تمَّ ردم الخندق، وأقيم سوق الحميدية والمحلات التجارية على امتداد سور القلعة من دون أن تلتصق به[٣٩٨].

ومن ثم تحتل القلعة الزاوية الشمالية الغربية من المدينة القديمة، تُحيط بها الأسواق من (٣) جهات، ويُحاذي نهر بردى جهتها الرابعة الشمالية، كما أن الخندق المحيط بها رُدم في أواخر العهد العثماني. وكان فيها عددٌ من المنشآت المهمة، منها: مسجد الصحابي أبي الدرداء، والقصر، ودار المسرة، والبزكة، والطارمة؛ وهي قاعة في أعلى البرج الشمالي الغربي أُزيلت كما زال أكثر هذه المنشآت.

لذلك تعددت منشآتها وعناصرها الدفاعية وأهمها: الأبراج، والبدنات بينها، والممرات الدفاعية، والمرامي، والرواشن، والسقاطات، والشراشيف، والخندق، والجسور المتحركة؛ إذ كانت القلعة منذ بداية إنشائها حصناً عسكرياً مهماً.

وكانت مقرّاً للسلاطين الأيوبيين، وفيها كانت تُمارس جميع النشاطات السياسية والاجتماعية، فكانت مدينة محصنة فيها القصور والحمامات والمساجد، وفيها دُفن عدد كبير من الملوك، ثم نُقل رفاتهم خارج القلعة.

وفي العصر المملوكي /٦٥٩-٩١٨هـ/١٥١٦-١٢٦٠م/ أصبحت القلعة مقرّاً لنُوّاب السلطنة؛ إذ أصبحت القاهرة هي العاصمة، وكان الملوك المماليك يُقيمون فيها عند قدومهم إلى دمشق، ثم صار للقلعة نائب خاص مستقل عن نائب السلطنة[٣٩٩].

وقد أدت القلعة دوراً مهماً في الدفاع عن المدينة، ولاسيما عند غزو المغول سنة /٦٥٨هـ/١٢٥٩م/، ولكنها سقطت أمام عُنفِ ضربات المنجنيق التي أتت على البرج الغربي والجنوبي، وقد وصف أبو شامة هذا الحصار العنيف وهذا التخريب الخطير[٤٠٠]، وما لبث أن عني الملك الظاهر (بيبرس) بترميمها، فقد كان كثير التردد والإقامة فيها؛ لقيادة معاركه ضدّ الصليبيين والتتار، وعندما توفي عُرض جثمانه فيها، ثم نُقل إلى المدرسة الظاهرية، وقد تعرّضت القلعة للحصار والتدمير من قبل التتار أكثر من مرة:

كانت أولاها سنة /٦٥٨هـ/١٢٥٩م/ بقيادة هولاكو؛ إذ تمّ الاستيلاء على المدينة من دون قتال، ومُنح أهلها الأمان بفرمان من هولاكو، لكن نائب القلعة المسؤول عنها بعد مقتل السلطان رفض التسليم،

٣٩٨- البهنسي، موسوعة التراث المعماري، ج١، ص/٢٢٥/.

399- King L.W، Citadel of Damascus,/1950/, p/71/.

٤٠٠- أبو شامة، (شهاب الدين المقدسي ت٦٦٥هـ/١٢٤٨م)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق عزة العطار، مطبعة وادي النيل، القاهرة،/١٩٤٧/، ج١، ص/١٢١/.

واعتصم في القلعة، فحاصره المغول مدة، وضربوها بأكثر من(٢٠) منجنيقاً إلى أن استولوا عليها بعد أن تمّ تدميرها من جهة الغرب[٤٠١].

وكانت الثانية خلال اجتياح تيمورلنك دمشقَ سنة /٨٠٤هـ/١٤٠١م/؛ إذ دخل المدينة بالخديعة، فنهب خيراتها وأموال سكانها وسبى نساءها، وقتل رجالها بعد أن أذاقهم ألوان العذاب، واستبقى منهم كل صاحب مهنة أو فنّ؛ ليأخذه إلى سمرقند عاصمته، ثم أشعل النار بالمدينة، فظلت تأكلها (٣) أيام؛ وأما القلعة فاستعدّت للحصار، ونُصبت المجانيق على سطوح أبراجها، فحاصرها تيمورلنك أشد حصار مدة (٢٩) يوماً، ورمى عليها بمدافع كثيرة، وبنى قبالتها قلعة من خشب، وحين صعد إليها التتار؛ ليقاتلوا أهل القلعة من أعاليها، رمى جند القلعة نفطاً، فأحرقوها عن آخرها، فأقام التتار قلعة ثانية أعظم من الأولى، وصعدوا إليها، وقاتلوا حامية القلعة، ولما يئست حامية القلعة من وصول النجدة من مصر، طلبت الأمان، واستسلمت، فقتل تيمورلنك رجالها عن آخرهم[٤٠٢].

وتتحدث كُتُبُ التاريخ عن الأسلحة والذخائر التي استُخدمت لضرب القلعة، أو من قبل حاميتها، وكان السلاح القديم هو المنجنيق الذي ظل مستخدماً بعد اختراع البارود حتى منتصف القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، وتتردّد في النصوص أسماء الأسلحة والذخائر الجديدة، كالمكحلة، أي المدفع، والسهام الخطائية، وقوارير النفط، والكفّيّات، أي القنابل.

وتصف المصادر أحد مجانيق القلعة بأن طول أكتافه (١٨) ذراعاً، وطول سهمه (٢٧) ذراعاً، ويرمي حجراً زنته (٦٠) رطلاً، وأنه ليس في حصون الإسلام مثله[٤٠٣]، بينما يرد أن وزن هذا الحجر في حصار عام/٨١٢هـ/١٤٠٤م/ بلغ /٩٠/ رطلاً[٤٠٤].

وقد عُثر في الحفريات الأثرية في القلعة على عدد من الآنيات الفخارية، يبلغ حجم الواحدة منها مقدار حجم قبضة اليد، أو أكبر قليلاً، شكلها يُشبه كوز الصنوبر، فُوّهتها ثقب صغير، ولا قاعدة لها (أي لا يمكن وضعها على سطح مستو)، تحمل على السطح طبعات دائرية عددها (٤)، وداخل كل طبعة عناصر زخرفية نباتية، إضافة إلى وجود طبعتين أسفل الفوهة على شكل مثلث يحتوي في داخله عناصر زخرفية هندسية، وتبلغ ثخانة حوافها حوالي (٢سم) تقريباً، ونُلاحظ بعض الشوائب في تركيبة العجينة المصنوعة

٤٠١- أبو شامة، (شهاب الدين المقدسي) /٦٦٥هـ/١٢٤٨م/، **الذيل على الروضتين**، تحقيق عزة العطار، دار الكتب، القاهرة، ط١، /١٩٤٧/، ص/١٧٣/.

٤٠٢- ابن تغري بردي، (جمال الدين يوسف ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م)، **النجوم الزاهرة في أخبار مصر و القاهرة**، وزارة الثقافة، مصر، ص/٢٤٠، ٢٤٦/.

٤٠٣- ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج١٤، ص/٢٠٣/.

٤٠٤- ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ج١٣، ص/٨٥/.

منها، إلا أنها تتمتع بمتانة عالية ووزن كبير[٤٠٥]، وهي تمثل قنابل يدوية تؤرخ بين القرنين الخامس والثامن الهجريين، الحادي عشر والرابع عشر الميلاديين[٤٠٦].

ولم تكن القلعة في حال السلم إلا مدينة مكتفية بذاتها، ففيها سكانها وجنودها والموظفون والفقهاء، ولها صندوق مال مستقل، وفيها: مخازن للمؤن، وسجن، ومسجد، وطاحون، عدا القصور والبيوت.

وفي العهد العثماني أصبحت القلعة مقراً للإنكشارية والدالية، ويرأسها آغا القلعة، ومهمته استقبال الوالي وتوديعه، كما استُخدمت القلعة سجناً ومعقلاً، وكانت مجالاً للفتن والاختلافات، ثم أصبحت المقرّ الوحيد للحامية العسكرية[٤٠٧]. الشكل(١٠٣)

مخطّط القلعة:

تبلغ مساحة القلعة (٣٣١٧٦م٢)، وهي ذات شكل مستطيل ذي أضلاع غير مستقيمة، يبلغ طولها ما بين (٢٤٠-٢٥٠م)، وعرضها ما بين (١٢٠-١٦٥م).

وينفتح في جسم أسوار القلعة /٤/ أبواب:

- الباب الشرقي هو المدخل الرئيس، ويؤدي إلى داخل المدينة.
- والباب الشمالي، وأمامه جسرٌ، يربطها مباشرة بالخارج.
- وبابان للسرّ ذوا جسور متحركة فوق الخندق في الغرب وفي الجنوب.

ويُحيطها من الخارج:

– سور منيع ذو أبراج مربعة ضخمة يبلغ عددها (١٢) برجاً، (٤) منها تحتل أركان القلعة، بعضها مربع، وبعضها مستطيل، أو يأخذ شكل الزاوية عند الأركان، و (٣) منها في الجنوب مستطيلة متماثلة، و (٣) أخرى في الشمال، وبرجان كبيران على جانبي الباب الشرقي.

– وخندق تمّ توسيعه بين عامي/٦١٢-٦١٤هـ/،/١٢١٤-١٢١٦م/، وهو بعرض (٢٠م)، وقد يصل إلى (٥م)، وقد رُدم إلاّ من الجهة الشمالية؛ إذ أصبح مجرى لنهر العقرباني فرع نهر بردى[٤٠٨].

ويُحيط بأسوارها وأبراجها من الداخل ممرّ دفاعي مسقوف ما زال معظمه باقياً[٤٠٩]. (الشكل ١٠٥)

وفي داخل القلعة باحة واسعة كانت تحتلّ جانباً منها المنشآت، كمسجد الصحابي أبي الدرداء، والحمام، وقاعة العرش (القصر الأيوبي)، والدواوين، والمدرسة، بقيت آثار منها، ومنشآت أخرى تمتد بين البابين الشرقي والشمالي. الشكل(١٠٤)

٤٠٥- سعد، (همام شريف)، **اكتشاف آنية فخارية ذات استخدام حربي** في مجلة مهد الحضارات، وزارة الثقافة، العدد السادس، /٢٠٠٨/، ص/١٥٦، ١٥٩/.

406- Souvaget J. **flacons a vin ou grenades a feu**, m lange Greoire, bruxelles, /1949/, Pp./525, 530/.

٤٠٧ - باشا، (أحمد جودت)، **تاريخ جودت**، إستانبول، ١٣٠٩هـ ج٤، ص٣٥٨.

٤٠٨- البهنسي، **موسوعة التراث المعماري**، ج١، ص/٢٢٤/48

٤٠٩- الريحاوي، **قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني**، ج١، ص/٣٢٢/.

وفيما يأتي لمحة عن أهم عناصر القلعة وأقسامها.

• **الأبواب**.. باب القلعة الشرقي يُفتح إلى داخل المدينة، وهو شبيه بأبواب القصور، فقد عُقد إيوان الباب بالمقرنصات الحجرية الجميلة المزخرفة بالعروق النباتية، ونُقش فوق سكف الباب كتابة من (٧) أسطر هي نصٌّ لمرسوم سلطاني صدر عام /٧٨١هـ/١٣٧٩م/، وتُشاهد في الداخل آثار زخرفة بالألوان ونقوش جصية، ويحميه البرجان الشرقيان (رقم ٢ و٣ في الشكل ١٠٥)، وتحميه الدفاعات الخاصة بهذين البرجين (المرامي والرواشن)، ويُؤلّف الدهليز فيه محوراً منكسراً إلى داخل القلعة، ويتصل بممراتها الدفاعية، وهو الباب الرئيس الرسمي للقلعة[٤١٠].

أما الباب الشمالي فأكثر حصانة؛ لكونه مُعرّضاً للهجوم من الخارج، وقد جُعل في البرج الكبير الذي تُحيط به مياه العقرباني أحد فروع نهر بردى، والدهليز فيه ينكسر (٥) مرات بزاوية قائمة، وهذا التصميم يُعطي الباب قدرة دفاعية كبيرة؛ إذ يُضعف المحور المنكسر اندفاع العدو، ويُعرّضه للإصابات من الدفاعات التي زُوّدت بها ممرّات البرج، ولا نظير لهذه الخصيصة في القلاع الأخرى، باستثناء باب قلعة حلب الداخلي[٤١١].

أما أبواب السرّ في الجنوب والغرب، فتعني بلغة العصر أنها أبواب خاصة تُفتح عند اللزوم، باستخدام جسر معلّق (متحرك) فوق الخندق[٤١٢]؛ إذ ذكرت المصادر التاريخية في العصر المملوكي، ولاسيما في عهد الملك الظاهر (بيبرس) أنّ للقلعة (٤) أبواب[٤١٣].

• **الأبراج**.. أهم شيء في قلعة دمشق أبراجها التي تُؤلّف القوة الضاربة؛ لذا بُنيت بعناية فائقة، وفاقت في حجمها واتساعها وحصانتها كلَّ ما عُرِفَ في الأبراج في الماضي؛ إذ تبلغ مساحة البرج رقم (١) (٢٠×٢٤م٢)، وأما مساحة البرج رقم (١٢) فهي (٣٠×١٥م٢)، أما ارتفاع الأبراج فحوالي (٢٤,٥م)[٤١٤]، وهي مؤلفة من (٣) طوابق، في كل منها قاعة واسعة مستطيلة مسقوفة بـ (٣) قبوات متقاطعة تفصل بينها عقود حجرية تتّسع لعدد كبير من الجند، وجُعلت الأبراج بارزة عن السور؛ ليُتاح تزويدها بعدد أكبر من المرامي، وقد بلغ هذا البروز في بعض الأبراج (١٥م)؛ إذ زُوّدت الجدران البارزة منها عن السور ب (٥) مرامٍ في كل طابق، وبذا يكون مجموع مرامي الطوابق (١٥) مرمى، كما زُوّدت طوابق البرج

٤١٠- الريحاوي، **قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني**، ج١، ص/٣٢٧/.

٤١١- الريحاوي، قلعة دمشق، ص/١٠٥/.

البهنسي، **موسوعة التراث المعماري**، ج١، ص/٢٢٦/.

الريحاوي، **قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني**، ج١، ص/٣٢٨/.

٤١٢- أبو البقاء الدمشقي، (عبد الله البدري)، **نزهة الأنام في محاسن الشام**، القاهرة،/١٣٨٤هـ/، ص/٢٦/.

٤١٣- ابن شداد، (القاضي عز الدين ت٦٨٤هـ/١٢٦٧م)، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تحقيق د.سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ط١، /١٩٥٦/، ج٢، ص/٣٩/.

٤١٤- الريحاوي، المرجع السابق،ج١، ص/٣٢٨/.

بمرحاض في كل منها، وفُتح باب البرج الرئيس في منتصف ضلعه المتصل بالممر الدفاعي المسقوف المطلّ على داخل القلعة، وأُحدث الدرج ضمن ثخانة الجدار على يمين الباب؛ ليؤمن الوصول إلى الطوابق الأخرى، وإلى السطح، وللطابق الثاني باب يصله بالطابق العلوي للممرّ الدفاعي أيضاً، وسطح البرج أيضاً له قيمة دفاعية كبيرة، فهو محاط من جهاته الثلاث المطلّة على خارج القلعة بستائر على طبقتين، فُتحت في الطبقة السفلى المرامي الكبيرة، وعددها (٧) مرام، وكذلك رُكّبت فيها الرواشن التي يُدخل إليها من سطح البرج، وعددها (٧) رواشن، بينما زُوّدت الطبقة العليا بعدد كبير من المرامي الصغيرة عددها (١٥) مرمى، أما الجهة الرابعة من السطح، والمشرفة على باحة القلعة فخالية من الستارة؛ لعدم الحاجة إليها، وعلى السطح كانت تُنصب المجانيق؛ لقذف العدو المحاصر القلعة[٤١٥]، وبذا يكون العدد الوسطي للمرامي والرواشن في البرج الواحد(٣٧) مرمى و(٧) رواشن، وهذا عدد ليس في أبراج قلعة أخرى معاصرة عربية أو صليبية، وللبرج درجٌ داخلي يؤدي إلى الطوابق والسطح، ويصل البرج بالأسوار، والممر الدفاعي بطابقيه السفلي والعلوي، وكذا بين الأبراج الأخرى من جهة ثانية، مما يُسهّل عملية انتقال الجنود في أنحاء القلعة[٤١٦]. الشكل(١٠٥)

• **الأسوار**.. هي جدران ثخينة تصل بين الأبراج، أطلق القدماء على قطعة السور الواقعة بين برجين من السور اسم (البدنة)، وتُشكّل البدنات سور القلعة، وقد بُنيت كما الأبراج بحجارة ضخمة بارزة النحت، وتبلغ ثخانة الأسوار ما بين (٣,٩-٤,٩م)، وارتفاعها (١١,٥م)، فُتحت فيها مرامٍ للسهام موزّعة على طابقين، وتعلوها ستارة من الشرافات ذات مرامٍ صغيرة، ويُحيط بها من الداخل ممرّ مسقوف مؤلف من طبقتين يحمي الرماة في أثناء تنقّلهم بين الأسوار والأبراج، بينما يُحيط بالسور من الخارج خندق يُملأ بالمياه في حالات الحصار[٤١٧]. (الشكل ١١٢)

• **العناصر الدفاعية**.. تشتمل على المرامي والرواشن والستائر.

أما المرمى ففتحة في جدار السور، أو البرج، شكلها كما يبدو يشبه إيواناً يتسع لعدد من الرماة يتناوبون الرمي، عرضه (٣م)، وعمقه (٢م) تقريباً[٤١٨]، ينتهي في وسطه بفتحة على شكل زاوية سعتها من من الداخل (١٤٠سم)، تتحول في الخارج؛ إذ تنطلق السهام إلى شقّ ضيق عرضه حوالي (١٠سم)، وارتفاعه حوالي (١٧٠سم)، مما يسمح للرامي بالوقوف، بينما كان ارتفاع المرامي الأقدم يقلّ عن (١م)، ومما يلفت الانتباه في مرامي الستائر كون مرامي الجدارين الجانبيين قد جُعلت مائلة نحو الخارج حوالي

٤١٥- الريحاوي، **قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني**، ج١، ص/٣٢٩/.

٤١٦- عمران، (هزار)، دبورة، (جورج)، **قلعة دمشق**، منشورات وزارة الثقافة، المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق،/١٩٩٨/، ص/٥١، ٥٥/.

٤١٧- الريحاوي، **قلعة دمشق**، ص/١٥٥/.

٤١٨- الريحاوي، **قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني**، ج١، ص/٣٣٠/.

(٤٥) درجة، وليس لهذا من سبب سوى جَعْلِ السهام موجهة توجيهاً أفضل نحو العدو، وهذه ظاهرة تنفرد بها قلعة دمشق، وتدل على دراسة دقيقة لفنّ الرمي[٤١٩].

وأما الرواشن فبرج صغير يبرز عن جدار البرج أو السور، معلق فوق عدة بوارز حجرية متراكبة، لكن الرواشن نادرة في أسوار القلعة، وأكثرها في الأبراج، ففي كل برج (٥) رواشن؛ اثنان منها كبيران في الأركان، ومكانها في الطابق السفلي من الستائر، ويُدخل إليها من سطح البرج[٤٢٠]، وأهمية الرواشن تأتي من السقاطات في أرضه التي تُصبّ منها المواد الفتّاكة أو الزيوت المغلية، وهي فتحات مربعة قياسها الوسطي (٤٠×٤٠سم٢)، يحتوي الروشن على (٣)أو (٥) منها[٤٢١]، وله فتحة في جداره الأمامي للمراقبة شبيهة بشقّ المرمى. (الشكلان ١١٣، ١١٤)

ومن المهم الإشارة إلى ما يرد في أخبار القلعة من ذكر ستائر إضافية من الخشب تُركّب في أعلى الأسوار و الأبراج عند الحصار؛ لتزيد من قدرة القلعة الدفاعية[٤٢٢].

ومن العناصر الدفاعية للقلعة الخندقُ الذي كان يحيط بها من الجهات كلها؛ إذ يتم ملؤه بالماء وقت الحرب وسيلةً دفاعيةً تُعيق تقدُّم الأعداء، ويُسهّل على الجنود المدافعين عن القلعة عملية التصويب الدقيق ضدّهم.

• **المنشآت المدنية**.. أما أهم المنشآت التي ما زالت حتى الآن فهي جامع الصحابي أبي الدرداء الذي يقع في الجهة الشمالية من القلعة، وهو قاعة واسعة تتصل بالبرج الشمالي المتوسط، وعلى جانبها إيوانان صغيران، وتعلو القاعة قبّة، وفي الحرم ضريح يُنسب إلى الصحابي أبي الدرداء[٤٢٣].

أما القصر الأيوبي فبناء كبير يمتدّ خلف الممرّ الدفاعي الجنوبي في الجانب الغربي منه بطول (٨٠م)، وهو مؤلف من طابقين بارتفاع (١٥,٥م)، وهو مؤلف من (٦) إيوانات في كل طابق، وتُسقف القاعة بعقود متقاطعة، والقاعة الطويلة (القصبة) تمتدّ من الشرق إلى الغرب مؤلفة من: قاعة أولى مؤلفة من (٦) معازب موزعة على جناحين.وقاعة ثانية مؤلفة من (٩) معازب مسقوفة بعقود متقاطعة، ولها (٤)

٤١٩- البهنسي، **موسوعة التراث المعماري**، ج١، ص/٢٢٦/.

الريحاوي، **قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني**، ج١، ص/٣٣١/.

٤٢٠- المرجع السابق نفسه، ج١، ص/٣٣٣/.

٤٢١- الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص/٢٧٤، ٢٧٥/.

٤٢٢- الريحاوي، **قلعة دمشق**، ص/١٧٠/.

الريحاوي، **قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني**، ج١، ص/٣٣٥/.

٤٢٣- ابن كثير، (عماد الدين بن إسماعيل ت٧٧٤هـ/١٣٥٤م)، **البداية والنهاية**، مطبعة العادة، مصر،/١٩٣٢/، ج١٣، ص/١٤٨/.

أبو البقاء، (عبد الله البدري المصري)، **نزهة الأنام في محاسن الشام**، القاهرة،/١٣٨٤هـ/١٩٨٨م/، ص/٦٠/.

أبواب[٤٢٤]. وثمة قاعة مؤلفة من (٩)معازب، وتعلو المعزبة الأولى الوسطى قبة. أما القاعة الرباعية فمؤلفة من (٤) معازب، وهي سلجوقية[٤٢٥].

تقنية البناء المستخدمة في تشييد قلعة دمشق:

بُنيت أسوار القلعة وأبراجها بحجارة كلسية صلبة ذات حجم كبير؛ إذ يبلغ متوسط ارتفاع المداميك (٦٢سم)، وقد نُحتت بأسلوب خاص مميز، فجُعلت وجوه الحجارة تبرز عن إطارها الصقيل ما بين (١٠-٣٠سم)، وهذا البروز مقطوع قطعاً غير منتظم يُعطيه شكل الرؤوس الماسية، وهذا الشكل من النحت للحجارة لم يكن اعتباطياً، ويبدو للمتأمل أثره على المظهر العام؛ إذ يُضفي على القلعة مزيداً من القوة والرهبة، كما ثبت من الناحية العملية أنه أكثر مقاومة لمقذوفات المنجنيق من الحجارة الملساء، ولعل مصدر هذه المقاومة يعود إلى أن قنابل المنجنيق المكوّرة حين تصطدم بالجدار تلامس سطحا أصغر مما لو وقعت على سطح مستوٍ، وتفقد بعض مفعولها، هذه التقنية التي تُشاهد في معظم قلاع العصر الأيوبي في الشام عريقة، وكان يُطلق على مثل هذا النوع من الحجارة (الصورية)، لكن البروز زاد عن المألوف في القلاع الأيوبية، ولا سيما في قلعة دمشق[٤٢٦].

٦. مدرسة الفردوس:

ليس من المبالغة بمكان إذا وُضعت هذه المدرسة في عداد روائع العمائر التي أبدعتها الحضارة الإسلامية من حيث تخطيطها الفريد الذي لا يُشاهد فيما بُني قبلها أو بعدها من المدارس، وعناصرها الإنشائية والزخرفية التي تتفرّد بها، والمواد المستعملة فيها كالحجر والرخام المتقن النحت، وقد كان الفضل في إنشائها لزوج ملك حلب (الظاهر غازي)، وهي (ضيفة خاتون بنت الملك العادل أبي بكر)[٤٢٧]، جرى تشييدها عام/٦٣٣هـ/١٢٣٥م/، وهي ما تزال في حال حسنة في ضاحية المدينة الجنوبية خارج باب المقام في محلة الفردوس[٤٢٨]. (الشكل ١٣٧)

424- Sauvaget J.، **Citadelle de Damas**, op.cit., 2 Art. P./216/.

٤٢٥- البهنسي، **موسوعة التراث المعماري**، ج١، ص/٢٢٦/.

الريحاوي، **قلعة دمشق**، ص/٢٣٣، ٢٣٨/.

٤٢٦- الريحاوي، **قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني**، ج١، ص/٣٣٧، ٣٤٥/.

الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص/٢٧٦/.

٤٢٧- **المرجع السابق نفسه**، ص/٢٨٠، ٢٨١/.

البهنسي، **موسوعة التراث المعماري**، ج٢، ص/٤٠٤/.

٤٢٨- ابن شداد، (القاضي عز الدين ت٦٨٤هـ/١٢٦٧م)، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تحقيق د.سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ط١، /١٩٥٦/، ج١، ص/٢٦١/.

ابن الشحنة، (محب الدين أبي الفضل محمد بن الشحنة الحلبي ت٨٩٩هـ/١٤٩٠م)، **الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب**، بيروت، الطبعة الكاثوليكية/١٩٠٩/، ص/١١٣/.

الطباخ، (مجمد راغب)، **إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء**، المطبعة العلمية، حلب، ط١، /١٩٢٥/، ج٢، ص/٢١٣/.

إن التخطيط المبتكر الذي تميزت به مدرسة الفردوس، والقائم على مبدأ عزل غُرَفِ السكن لأول مرة عن مبنى المدرسة الأساسي، وذلك بإنشاء أبنية مستقلة كأجنحة سكنية ملحقة بالمدرسة، حقّق هذا التخطيط ظاهرة فيها كثير من الفوائد ومظاهر التقدم والرقي في تاريخ المدارس، خلافاً لما كان متّبعاً وشائعاً في تصميم المدارس التي تجتمع قاعات الدرس والمسجد وغرف السكن والمنافع الأخرى حول فناء واحد مشترك، وهكذا لا يرى تصميم مدرسة الفردوس في أيّ مدرسة أخرى قبلها ولا بعدها، اللهم إلا مدرسة واحدة مشابهة شُيّدت بعدها بأكثر من قرن عام/٧٦٤هـ/١٣٦١م/في القاهرة،وتُعرف بـ (مدرسة السلطان حسن المملوكي)[٤٢٩]. الشكل(١٠٦)

• **تقنية البناء المستخدمة في تشييدها**.. المدرسة مشيّدة كلها بالحجر الجيد النحت، باستثناء عناصر التسقيف المكونة غالباً من القباب والقباء، ولا تزيد مساحة المدرسة في وضعها الحالي عن (٢٥٠٠م٢)، وهي ذات شكل مستطيل منتظم الحدود، أبعاده (٥٧×٤٤م)[٤٣٠].

• **التصميم العام للمبنى**.. تتميز هذه المدرسة بأنها أول مجمع بُني ليس في حلب فقط، وإنما في العالم الإسلامي، فهي تضمّ بين أرجائها أبنية متعددة الوظائف (مدرسة، تربة، رباط، زاوية)[٤٣١]، وتصميمها يقسمها إلى قسمين متميزين:

- جناح جنوبي يتألف من فناء حوله أروقة أحاطت بها قاعات الدرس من جهاته الثلاث.
- وجناح شمالي يتألف من بناءين شبه مستقلين، هما جناحا السكن الخاص بالطلبة والمدرّسين، وقد احتلاّ الركنين الشماليين، يفصل بينهما إيوانان، أحدهما مفتوح على فناء المدرسة، والآخر خلفه ينفتح نحو الخارج.

وتتألف المدرسة من صحن مستطيل مبلط بالحجر الأصفر والأسود بأشكال هندسية، في وسطه بركة ماء مثمنة الأضلاع، مفصصة من الداخل بمجموعة من الأقواس الصغيرة تجعل منها قطعة فنية رائعة، وفي شماله بئر مثمن قرب المدخل[٤٣٢]، تُحيط به (٣) أروقة من جهاته الثلاث الشرقية والغربية والجنوبية، قائمة على أعمدة وقناطر، ويتقدم كل منها (٤) أعمدة، يأخذ العمودان الزاويان منها شكل نصفي عمودين ملتحمين بركيزة مربعة، وهذه الطريق استُخدمت لأول مرة هنا، والأروقة مفروشة بالرخام الأسود والأصفر، ومسقوفة بسقف مستو حديث[٤٣٣] الشكل(١٠٧)، وفي الجهة الرابعة الشمالية إيوان كبير واسع مفتوح مباشرة على فناء المدرسة بعقد من الحجر، وهو مسقوف بقبوة، وهناك إيوان آخر خلفه ينفتح نحو الخارج، وخلف الرواق (٣) قاعات مستطيلة كل منها مسقوف بـ (٣) قباب، وله (٣) أبواب، والقاعة

الغزي، (كامل بن حسين)، **نهر الذهب في تاريخ حلب**، المطبعة الماروتية، حلب، /١٩٢٦/، ج٢، ص/٢١٨/.

٤٢٩- الريحاوي، **قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني**، ج٢، ص/٣٦٤/.

٤٣٠- **المرجع السابق نفسه**، ج٢، ص/٣٧٤/.

٤٣١- الجاسر، (لمياء)، **مدارس حلب الأثرية تاريخها وعمارتها**، حلب، /١٩٩٧/، ص/٢١٠، ٢١١/.

٤٣٢- **المرجع السابق نفسه**، ص/٢١١/.

٤٣٣- **المرجع السابق نفسه**، ص/٢١١/.

الجنوبية مخصصة للصلاة، وعلى جانبيها في الأركان غرفتان مربعتان لعلهما خُصّصتا لتكونا تُربتين، وهما تتصلان بباب خاص مع قاعة الصلاة من جهة، ومع القاعتين الأخريين اللتين كانتا مخصصتين للتدريس من جهة أخرى، وقد سُقفت القاعات كلها بمجموعة من القباب عددها (١١) قبة؛ إذ إن الاعتماد الكلي كان على القباب في تسقيف الوحدات، ويظهر ذلك لأول مرة في عمائر بلاد الشام، فقد قُسمت كل قاعة من القاعات الكبيرة على (٣) أحواز مربعة بواسطة العقود الحجرية، وتُلاحظ عناية خاصة بخزائن الكتب المفتوحة في جدران القاعات الثلاث والإيوان الشمالي[٤٣٤]، وقد عُزلت أماكن السكن وغُرف الطلاب والمدرّسين في جناحين خاصين يحتلاّن الركنين الشماليين، ويتألف كل جناح من دار شبه مستقلة مؤلفة من فناء سماوي وإيوانات وغُرف مختلفة الأحجام، سُقفت كلها بوساطة القباء في الطابق الأرضي، ويُرجح أن تكون هناك غُرف صغيرة أخرى في الطابق العلوي الذي يُؤكّد وجوده سُلّمٌ حجري في كل من الجناحين، ويتصل الجناحان بالمدرسة بوساطة ممرّ ضيق مسقوف، ويحوي هذا القطاع الشمالي، إضافة إلى جناحي السكن، مداخل ودهاليز ووحدات أخرى للخدمات المختلفة، وهو يختلف عن القطاع الجنوبي من حيث الشكل العام والتصميم والعناصر ووسيلة التسقيف، وهذا سببه اختلاف الوظيفة والمتطلبات لكل من القطاعين الجنوبي والشمالي.

أما بوابة المدرسة الرئيسة فقد جُعلت في الجهة الشرقية، وهي على شكل إيوان فخم معقود بالمقرنصات الحجرية، يليه دهليز يمتدّ على محور منكسر في اتجاه الصحن، وفي الجهة الشمالية من ظاهر المدرسة إيوان كبير خلف الإيوان الشمالي الذي ينفتح على فناء المدرسة، وهذا الإيوان الخلفي ينفتح نحو الخارج، وبجانب الإيوان الخلفي الشمالي عناصر غامضة لعلّها تُؤلّف جزءاً من وحدة معمارية غير مكتملة البناء، أو متهدمة، وقد عدّ بعضهم الغرض من هذا الإيوان الخلفي استخدامه لتعليم القرآن، وأن له ما يُشبهه في المدرسة المستنصرية في بغداد، وقد يكون كما يبدو مصلًّى صيفياً، أو مصلًّى للجنائز، ولكن هناك من يُرجّح أن يكون الإيوان الخلفي مفتوحاً من الأصل على فناء آخر يخصّ المدرسة، ويُؤيّد ذلك وجود مداخل لدهاليز على جانبي الإيوان الخلفي تُؤدّي إلى المدرسة وعلى الأجنحة السكنية، وشكْلُ فتحاتها ليس من الشكل المألوف في البوابات الخارجية، بل هي فتحات داخلية، وكذلك فتحة الإيوان، وكل ذلك يفترض وجود فناء أو حديقة تتقدم هذه الجهة من المدرسة زالا مع منشآت أخرى كانت تُحيط بها، أو إنه لم يكتمل تنفيذ هذا الجناح من المدرسة أصلاً[٤٣٥]، وهناك مداخل ثانوية تُشاهَد في الجهة الشمالية على جانبي الإيوان الخارجي، ومن الممكن أن يكون هناك فناء ثانٍ كان يتقدم هذه الجهة، وتُؤدّي هذه المداخل كما يظهر في المخطط الرئيس إلى صحن المدرسة وإلى جناحي السكن عن طريق دهاليز ضيقة مسقوفة بالقباء الطولية.

وتتسم العناصر المعمارية لمدرسة الفردوس بالتناسق والإتقان، ساعد على ذلك استعمال مادة الحجر وجودة نَحْتِهِ، فمن عناصرها:

٤٣٤- الريحاوي، قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني، ج٢، ص/٣٧٨/.

٤٣٥- المرجع السابق نفسه ، ج٢، ص/٣٧٦/.

– القباب التي اعتُمد عليها اعتماداً كلّيّاً في تسقيف القاعات لأول مرة في العمائر الإسلامية السورية، واستعملت وساطة للانتقال مثلثات كروية جديدة على شكل مثلث مزدوج، وهذه القباب لا ترتفع كثيراً عن سطح البناء؛ لكونها من دون رقبة، باستثناء القبة المركزية القائمة عند المحراب، والتي تتميز أيضاً بكون طاستها مشيّدة بمداميك دائرية منتظمة من الحجر المنحوت، بينما جُعلت طاسات القباب الأخرى من الآجر المطلي بالملاط الكلسي.

– والمقرنصات التي استُخدمت في زخرفة الأعمدة الحجرية الحاملة لقناطر الرواق منحتها شكلاً جديداً من أشكال التيجان يظهر لأول مرة؛ كما استُخدمت المقرنصات في أركان القبة المركزية، إضافة إلى مقرنصات البوابة الرئيسة.

– والعقود التي كانت من النوع المدبب الذي يُرسم من مركزين، مكوّنة من فقرات كبيرة من الحجارة المنحوتة، وقد دُعّمت عقود الرواق كلها بروابط خشبية زال معظمها، وبقيت آثارها ظاهرة بين تيجان الأعمدة وأرجل العقود.

– وبُركة الصحن التي تتميز بشكلها ودقة نحتها عن كثير غيرها، فهي مثمنة الشكل، فُصصت أضلاعها من الداخل؛ لتأخذ شكلاً تزينياً.

وأخيراً، لمدرسة الفردوس شهرة عالمية بسبب محرابها الذي يُصنف في عداد أجمل محاريب العالم الإسلامي من حيث زخارفه، فقد رُصّعت واجهته وباطنه بالرخام الملون، وتألفت واجهة العقد من شكل هندسي معقّد قوامه عقود مفصصة متداخلة من ألوان عدة، ويبدو أن هذا الشكل الزخرفي كان أول ظهوره في حلب في المدرسة الظاهرية الجوّانية أو السلطانية عام /٦٢٠هـ/١٢٢٣م/، ثم انتشر منها إلى أنحاء العالم الإسلامي: في مسجد علاء الدين ومدرسة قرطاي في قونيا، وقبة السلسلة في القدس، والمدرسة الجقمقية في دمشق، وغيرها[٤٣٦]، وهناك منبر إلى جانب المحراب ــ ليس من أصل البناء ــ خشبي مدهون له سياج من الخشب، وفوق جلسة الخطيب قبة مخروطية[٤٣٧]. الشكل(١٠٨)

٧. مدرسة ابن العديم:

تقع في المحلة المعروفة اليوم بـ(محلة محمد بك) غرب (قسطل علي بك) في زقاق المدرسة في مدينة حلب، وتقع على مرتفع تُطلّ منه على شارع رئيس يفصلها عنه زقاق، ثم أرض ترابية، ويصلها به درج[٤٣٨].

وهي من المدارس المرموقة بجودة هندستها وعناصرها المعمارية، وتعرف بـ(المدرسة الطرنطائية) حالياً؛ لأنها نُسبت إلى الأمير سيف الدين طرنطاي نائب السلطنة في العصر المملوكي الذي تولى نيابة

٤٣٦- حجار، (عبد الله)، **المعالم الأثرية في حلب**، منشورات جامعة حلب وجمعية العاديات، حلب، /١٩٩٠/، ص/٧١/.
الجاسر، **مدارس حلب الأثرية تاريخها وعمارتها**، حلب، /١٩٩٧/، ص/٢١٢/.
الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص/٢٨٢، ٢٨٤/.

٤٣٧- الغزي، **نهر الذهب في تاريخ حلب**، ج٢، ص/٢١٩/.

٤٣٨- الجاسر، **المرجع السابق**، ص/٢٢٢/.

الفصل الثامن

العمارة الإسلامية في العصر المملوكي

(مصر والشام)

أولاً.. تمهيد تاريخي:

امتدت القاهرة في عصر المماليك البحرية أو الأتراك ٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م صوب الشمال، في الطريق التي رسمها لها صلاح الدين الأيوبي من قبل، فهدموا ما تبقى من القصرين الفاطميين الكبيرين كذلك لم يتركوا قطعة أرض فضاء داخل حدود القاهرة من جنوبها إلى شمالها، إلا وأقاموا فيها الجوامع والمدارس والأضرحة والحمامات والوكالات والأسبلة، ولم تقف في وجوههم الأسوار الشمالية بل تخطوها وبنوا المساجد الفخمة، واقتفى أثرهم المماليك الشراكسة أو البرجية ٧٨٤-٩٢٢هـ/١٣٨٢-١٥١٦م فعمروا الصحراء وشيدوا فيها المساجد والأضرحة.

والواقع أن القاهرة تزينت ولبست أبهج حللها في عصر المماليك الذي يعد العصر الذهبي في تاريخ العمارة العربية الإسلامية بمصر والشام، فقد كان الإقبال عظيما على الإنشاء والتعمير حيث عم الرخاء في عصرهم وامتلأت خزائنهم بالأموال، لما كانت تدره عليهم التجارة الشرقية من ثروات وما كانوا يجبونه من مكوس عليها عند دخولها أو خروجها من مصر فعاشوا عيشة البذخ والترف وتسابق السلاطين والأمراء والوزراء في إقامة المساجد الفخمة والقصور الشاهقة واقتنوا أجمل التحف وأغناها، وما تزال القاهرة تحتفظ بالكثير من تحفهم التي تشهد ببراعة الصناع وتفوق الصناعة في عصرهم، وحياة الترف والبذخ التي كانوا يحبونها.

كذلك امتدت أرض القاهرة في عصر المماليك صوب الغرب والشمال الغربي بما طرحه النيل من أرض كونها الطمي الذي يأتي به النيل مع مياه الفيضان كل عام فنشأت أرض اللوق وجزيرة الفيل وشبرا وغيرها[٤٧٢].

وعلى الرغم من الحروب المتواصلة التي دارت رحاها في أيام المماليك البحرية بين مصر والصليبين والتتار وعلى الرغم من الثورات الداخلية والفتن والدسائس فقد استطاع هؤلاء المماليك أن يسجلوا لأنفسهم في تاريخ العمارة والفن العربي الإسلامي صفحات ذهبية تشع من سطورها آيات المجد الفنية بما تركوه من أمثلة رائعة لفنون العمارة والصناعة والزخرفة الإسلامية[٤٧٣].

---

[٤٧٢] – عيسى، (شحاته)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة، /١٩٩٩م/، ص/١٦٣/.

[٤٧٣] – زكي، (عبد الرحمن)، الفن الإسلامي، سلسلة كتابك، الكتاب رقم ١٦٤، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٨٥، ص/٤٧/

ثانياً..مميزات العمارة العربية الإسلامية في العصر المملوكي:

أ)هناك خصائص ومميزات للعمارة العربية الإسلامية في العصر المملوكي وهي:

– أن المساجد القديمة لم يكن بها نقوش من الخارج إذ كانت الجدران تخلو من الزخارف والرسوم، حيث لم تظهر زخرفة الواجهات للمساجد إلا في أواخر العصر الفاطمي وذلك في واجهة المسجد الأقمر، أما مساجد المماليك فإنها تحتوي في العادة على واجهات جميلة ونقوش غائرة وأبواب جانبية وأفاريز مزينة.

– والخاصية الثانية هي تطور المآذن التي أصبحت أكثر رونقا وجمالا كما بدأت تبنى بحجارة جميلة الشكل وتحتوي على تفاصيل دقيقة وزخارف مختلفة.

– أما الخاصية الثالثة فهي بناء القباب فحتى ذلك الوقت كانت القبة الصغيرة فوق المحراب أو فوق المدخل هي أقصى ما استطاعت هندسة البناء أن تنجزه، والحقيقة أن خلفاء صلاح الدين أوجدوا القباب الكثيرة الكبيرة مثال ذلك قبة الإمام الشافعي ومدرسة الفردوس في حلب.

– على أن المماليك كانوا بحق سادة بناة القباب وكانت جانب غير قليل من مساجدهم ومدارسهم بمثابة أضرحة لمؤسسيها فكان القبر يلاصق البناء الرئيسي، وهكذا بدأت القاهرة منذ عصر المماليك تزدان بتلك القباب الجميلة التي ما زالت حتى اليوم تضفي على مبانيها صبغة خاصة، ولقد جاءت بعد القباب الصغيرة القديمة التي سلف ذكرها، تلك القباب المنقوشة ثم القباب المغطاة بالزخارف الهندسية المختلفة والنقوش العربية والرسوم الدقيقة وجميعها منقوشة على الأحجار، والواقع أن أروع زخرفة ترجع إلى السلاطين الشراكسة في القرن الخامس عشر الميلادي إلا أن القباب في القرن الرابع عشر الميلادي كانت قد احتلت مكانها اللائق بها بين أهم ما يميز فن البناء العربي الإسلامي[٤٧٤].

ولم يألُ المعماري جهداً في اقتباس كلّ ما وجده ملائماً لتطوير الفنون المعمارية، والارتقاء بها من أقاليم العالم الإسلامي الأخرى، ويمكن تلخيص خصائص عمائر عصر المماليك ومزاياها في النقاط الآتية:

١. من حيث الهندسة والتخطيط:

ظهرت عمائر ضخمة يمكن أن يطلق عليها اسم (المجمعات) التي تتسم بمساحتها الكبيرة وارتفاعها، وتتألف غالباً من مدرسة وتربة وبيمارستان، وتضم أحياناً سبيلاً وكُتّاباً أيضاً، وتوجد هذه المجمعات في مدينة القاهرة خاصة، من مثل: مجمع (السلطان قلاون)، ومدرسة وخانقاه (الأشرف برسباي)، ومدرسة ومسجد (قايتباي)، وظهرت المنشآت ذوات الطوابق المتعددة المؤلفة من (٣) أو (٥) طبقات، بينما لم تكن المباني من قبل تزيد على الطابقين، مثل ذلك: وكالة (الغوري)، والرباع التي تشبه المجمعات السكنية التي يتجاوز ارتفاع بعضها (٤٠م).

ويتكون التخطيط العام للعمائر بأنواعها من بوابة ضخمة يليها دهليز (دركاه) يُفضي إلى صحن تتوزع حوله الإيوانات وأقسام البناء الأخرى، ويلاحظ أن حجم الصحن صَغُرَ عن ذي قبل في المساجد

---

[٤٧٤] – بول، (ستانلي لين)، سيرة القاهرة، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، د. علي إبراهيم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، /١٩٩٧/، ص/١٩٤/ .

والمدارس من أجل زيادة مساحة الوحدات المسقوفة، وغُطّي الصحن أحياناً بقبة، وأحياناً بمنور على شكل سقف مستوٍ زُوّد في أطرافه بنوافذ عدة.

٢. من حيث العناصر المعمارية:

أُعطي للواجهات وبوابات المباني مزيدٌ من الاهتمام من حيث التصميم والزخرفة، وغـدت ذات ارتفاع بالغ، فاغتنت الواجهات بفتحات الشبابيك والنوافذ المصممة ضمن دخلات جدارية شبيهة بالمحاريب العالية، وغالباً ما توجد النوافذ المجمّعة المؤلّفة من نافذتين فوقهما نافذة مستديرة أو أكثر في عمائر القاهرة خاصة.

وأما البوابات فهي تبرز عن الواجهة أحيانا، على شاكلة ما شاهدناه في العمائر الفاطمية، يتقدمها أحياناً درجٌ مزدوج، له درابزين من الحجر أو الرخام؛ لجعل المبنى يرتفع عن مستوى الشارع، والبوابـة مؤلفة من إيوان بارتفاع الواجهة، أو يزيد عنها قليلاً، ويوجد على جانبي الإيوان مقعدين، أو مصـطبتين، من الحجر أطلق عليها المصريون اسم (المكسلة).

وتُعدّ القبة من أبرز خصائص العمارة في العصر المملوكي، وموضع اهتمام كبير، زاد المهندس من ارتفاعها، ونوّع أشكالها وغطّاها بالزخارف من داخلها وخارجها، واستخدم لزيادة ارتفاعهـا الرقبـة العالية ذات الطبقتين: إحداهما مضلعة، والأخرى أسطوانية، وزاد أيضاً في ارتفاع طاسة القبة التي غلـب على سطحها الخارجي الشكل المحزز ذو الضلوع الشاقولية، وشاع في التسقيف إلى جانب القبـة السـقف المستوي المكون من الجسور والألواح الخشبية المزخرفة بالرسوم والألوان.

أما المآذن فلم تعد قاصرة على الشكل ذي المسقط المربع التقليدي، بل أصبحت تتكون من طبقات تتوالى فيها الأشكال المربعة، فالمضلعة، فالأسطوانية، ثم تنتهي بقبة تأخذ بدورها أشـكالاً عـدة، بينهـا البصلية القائمة على قاعدة تُشبه الكأس، وبينها المحززة ذات الضلوع الشاقولية المحدبـة يُطلـق عليهـا بعضهم في مصر (المبخرة)، وكان أول ظهورها في جامع (الحاكم الفاطمي)، وخانقاه (قوصون)، وزاوية الهنود، وهذه المآذن كلُّها في القاهرة، ولم يقف التجديد عند هذا الحدّ، فابتكر المعماري مآذن لها رأسان في أعلاها؛ لتبدو كأنها مئذنتان، مثال ذلك مئذنة (الغوري) في الأزهر، ومئذنة مسجد (الأميـر قـاني بـاي الرمّاح) في القاهرة، كما تعدّدت شُرفات الأذان، فهي مثنى وثُلاث، تنتهي الأخيرة بما يُسمى (الشاذروان) المؤلف من (٨) سوبريات تحمل قبة صغيرة، وزُوّدت المئذنة من أسفلها إلى أعلاها بعدد مـن العناصـر المعمارية والزخرفية بينها المحاريب والنوافذ والعقود المختلفة الأشكال، ويمثل ذلك أحسن تمثيـل مئذنـة خانقاه (فرج بن برقوق).

أما أشكال العقود فتنوّعت إلى حدّ كبير، بينها: نصف الدائري، والحـدوي، والمـدبب بأنواعـه المختلفة، والمخموس الذي يُرسم من مركزين، والعباسي الذي يُرسم من (٤) مراكز، والذي غـدا قسـمه العلوي مُقعّراً مما يُعرف بـ(الفارسي)، وقد غدا العقد الفاطمي مؤلفاً مـن مسـتقيمين متلاقيـين، شـبيهاً بالزاوية المنفرجة، وهناك أخيراً العقد المفصص، ولاسـيّما ثلاثـي الفصـوص، والعقـد الشـعاعي، أي

المفصص، على هيئة ضلوع غائرة تُغطي طاسة المحاريب أو البوابات على شكل الصدفة الذي ظهر في العصر الفاطمي (واجهة مسجد الأقمر)، والعقد الوسائدي الذي شاع استعماله في هذا العصر في مصر والشام، وقد عُثر على أقدم أنموذج له في باب الفتوح الفاطمي.

٣. العناصر الزخرفية:

بلغت الزخرفة في العصر المملوكي أوْجَهَا من حيث الغنى والتنوع والصنعة الفنية، فالعناصر الزخرفية تُغطّي البناء في الداخل والخارج، وأهمّ هذه العناصر:

- التلوين، والذي يوجد في حجارة المداميك، وفي حجارة السواكف، والأشرطة الزخرفية المتداخلة أو المعشقة.
- والتطعيم بالرخام الملون، أو بالخزف، والصدف، والفسيفساء بأنواعها الرخامية والخزفية والزجاجية.
- والنقوش الجصية، والنقوش الحجرية، التي تؤلف حليات هندسية أو نباتية، إضافة إلى نقش الخشب.
- وأشرطة الكتابة العريضة بالخطّين الكوفي أو النسخي.
- والشرافات التي تتوج الجدران، وقد شاع فيها الشكل الزنبقي إضافة إلى المسنن القديم.
- والمقرنصات التي تُشاهد في أماكن عدة، فهي تُتوّج الأبوابُ والشبابيك، وتُستخدم لحمل شرفات الأذان في المآذن، وعند أطاريف الجدران، وفي القباب، وفي تيجان الأعمدة، وغدت أقواس خلاياها في عمائر القاهرة على شكل زاوية غالباً.
- والفساقي والسُّبُل المصنوعة من الرخام الملون، والموجودة داخل القاعات أو في الإيوانات كعنصر زخرفي وترفيهي.[٤٧٥]

ثالثاً: أشهر العمائر العربية الإسلامية في العصر المملوكي البحري ٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م في مصر:

حكم مصر من المماليك البحرية أربعة وعشرون سلطانا تميز أربعة منهم بعظيم ما شيدوه من مباني حتى استحقوا أن يلقبوا بالسلاطين البنائين وأهم عمائرهم هي:

١. جامع السلطان الظاهر بيبرس:

هو السلطان الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس البندقداري الصالحي وإليه ينسب حي الظاهر أحد أحياء القاهرة.

بناه الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م/ وقد كان الفراغ منه سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨-١٢٦٩م/، وطوله (١٠٠م) وعرضه (١٠٠م)[٤٧٦].

شيد المسجد بالحجر والآجر وبقيت منه أسواره وبوابته الفخمة التي يعتبر تصميمها امتداداً للفن الفاطمي المتمثل في بوابة جامع المهدية وجامعي الحاكم والأقمر من حيث بروزها الملحوظ والمحاريب

---

[٤٧٥] – الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص٢٩٩-٣٠٠.

[٤٧٦] – عيسى، القاهرة، ص/١٦٧/ .

غيرهما بارتقاء شكل الشرافات، وبأن الكسوة الرخامية التي تعلوا فتحات الشبابيك مكونة من طبقتين مزررتين تزيريرا دقيقاً بدلاً من طبقة واحدة في غيرها[٥٣٤]. الشكل (١٣١، ١٣٢)

أجمل ما في هذه المدرسة المئذنة لأنها تمثل طرازا فريداً في العمارة العربية الإسلامية بصفة عامة وعمارة العصر المملوكي بصفة خاصة، فهي تخالف تماماً طراز مآذن العصر المملوكي البحري والجراكسي والتي كانت في الغالب تتألف من قاعدة مربعة ثم بدن مثمن ثم شرفة ثم بدن اسطواني ثم منطقة الجوسق يعلوها قمة على هيئة القلة، أما هذه المئذنة فهي مختلفة تماماً حيث أنها ذات مسقط مربع الشكل وتشبه في ذلك مآذن الجامع الأموي بدمشق ومآذن بلاد المغرب، وإن كانت هذه المئذنة التي تتكون من ثلاثة طوابق الأول مربع الشكل وينتهي بشرفة محمولة على مقرنصات، والثاني مربع وينتهي بشرفة أيضا محمولة على مقرنصات، أما الطابق الثالث فهو مربع أيضاً وينتهي بقمة فريدة من نوعها حيث تتكون من خمسة رؤوس كمثرية من الخشب يعلو كل منها هلال من النحاس. وقد ظهرت مآذن ذوات رأسين في العهد المملوكي منها واحدة شيدت في الأزهر في عهد الغوري أيضاً والأخرى على مسجد قاني باي الرماح التي يرجع تاريخها إلى عام ٩٠٧هـ/١٥٠١م بينما شيدت مئذنتا الغوري عام ٩١٠هـ/١٥٠٤م.[٥٣٥]

رابعاً.. آثار العصر المملوكي في سوريا:

١. المدرسة الظاهرية:

كان من عادة الظاهر بيبرس أن يأتي إلى دمشق؛ للإقامة فيها في كل عام، ثم ينطلق في حملة من حملاته ضد المغول أو الصليبيين أو الباطنية الإسماعيلية، وكان يُقيم في قلعتها تارة، وفي قصره تارة أخرى، وقد هُدم هذا القصر في العهد العثماني، وأُقيمت مكانه التكية السليمانية، وقد تُوفي الظاهر بيبرس في قصره هذا، ودُفن في تربته الملحقة بالمدرسة الظاهرية.

وأهم شيء فيها الآن التربة والبوابة اللتان ما زالتا باقيتين في حال جيدة، بينما طرأ على سائر أجزاء المدرسة وإيواناتها تعديل وتجديد.

أما البوابة فمن أفخم البوابات، مفتوحة في واجهة من الحجر المنحوت، وتتألف من إيوان معقود بالمقرنصات الحجرية المتقنة التركيب، وطاسة صدفية الشكل، ويطوف بجدران الإيوان شريط من الكتابة بخط الثلث الجميل، ويعلو فتحة الباب المستطيلة عقدٌ عاتق من النوع المنخفض مركب من حجارة مشققة ذات لونين متناوبين.

وتحتل التربة الزاوية الجنوبية الغربية، وتضم قبر (الظاهر بيبرس) المتوفى سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م/، وهي قاعة مربعة مسقوفة بقبة ذات رقبة من طبقتين: للسفلى (٨) أضلاع، وللعليا

---

٥٣٤ - أحمد، الدليل الموجز لأشهر الآثار العربية، ص/١٨٢-١٨٥/.

٥٣٥ - الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص٣١٩.

(١٦) ضلعاً، وتمتاز بمحرابها المكسوّ بالرخام الملون على شكل عروق نباتية، وكذلك بوزرة عالية، تنتهي بسجف من الخشب المنقوش بالزخارف النباتية والمموهة بالذهب، ويلي الوزرة الرخامية في الأعلى فسيفساء زجاجية شبيهة بفسيفساء جامع دمشق الأموي، أو تقليد له[٥٣٦]. الشكل(١٣٣،١٣٤،١٣٥)

٢. المدرسة الجقمقية:

عدّ من أجمل مدارس العصر المملوكي، وفيها من الأصالة في التصميم، والفن في الزخرفة، ما يجعلها أنموذجا لفنون هذا العصر في العمارة والزخرفة، وقد وصفها مؤرخ معاصر حين اكتمل بناؤها بقوله: "وجاءت في غاية الحسن ليس بدمشق ولا مصر نظيرها"[٥٣٧].

تُفتقَدُ المدارسُ في دمشق بعد المدرسة الظاهرية، ولعل ذلك كان بسبب ما حدث لمدينة دمشق من دمار وحريق في خلال احتلال (تيمورلنك) لها سنة /٨٠٣هـ/١٤٠٣م/، وتظهر بعد هذا التاريخ مدارس في طليعتها المدرسة الجقمقية المشيدة عام /٨٢٤هـ/١٤٢١م/، وبعدها شُيّدت المدرسة الصابونية عام /٨٦٣هـ/١٤٠٨م/، والمدرسة السيبائية التي كانت آخر بناء للمماليك عام /٩٢١هـ/١٥١٥م/، وقد زُوّدت هاتان الأخيرتان بمئذنة على نَسَق مآذن المماليك، من حيث غناهما بالزخرفة والألوان.

وتتمتع المدرسة الجقمقية بأهمية خاصة من حيث تخطيطها وعناصرها المعمارية والزخرفية[٥٣٨].

وتُشير الكتابة المنقوشة على واجهتها إلى أن نائب السلطنة (سيف الدين جقمق) أنشأها عام /٨٢٤هـ/١٤٢١م/، وتُسمّيها الكتابة "خانقاهاً وتربة له ولوالدته"[٥٣٩]، وقد أوقف عليها (جقمق) أوقافاً كثيرة منها السوق الذي سُمّي باسمه، وما يزال الخان الكائن في سوق (مدحت باشا) يحمل اسمه، وقد عني (جقمق) قبل مقتله بالمدرسة، فعيّن لها المدرّسين، وزيّنها بالقناديل المكفتة، وبأنواع البسط الثمينة، وتذكر المصادر أن المدرسة نُهبت عند مقتله، وأُخذت أوقافها[٥٤٠].

• **مخطط المدرسة**.. تشغل رقعة صغيرة من الأرض إلى جوار الباب الشمالي للجامع الأموي ومئذنة العروس، ولعل صغر مساحة الأرض جعل المهندس يبتكر تخطيطاً خاصاً بها، فالمدرسة لها شكل مربع أبعاده (١٨×١٦م)، ويتألف مخططها من مدخل مؤلف من باب ودهليز منكسر يُفضي إلى صحن المدرسة، وهو مسقوف، تُحيط به أربعة إيوانات، وتربة تحتل الزاوية الشمالية الشرقية.

٥٣٦- الريحاوي، **العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا**، ص١٦٧.

البهنسي، **موسوعة التراث المعماري**، ج٢، ص٣٥٥.

الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص٣٢٧،٣٢٤.

٥٣٧- النعيمي، (عبد القادر ت /٩٢٧هـ/١٥٠٣م)، **الدارس في تاريخ المدارس**، تحقيق جعفر الحسني، المجمع العلمي، دمشق، ١٩٤٨، ١٩٥١، ج١، ص٤٨٩.

٥٣٨- الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص٣٢٧.

٥٣٩- السخاوي، (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن)، **الضوء اللامع**، منشورات دار مكتبة، بيروت، ج٣، ص٧٤.

٥٤٠- الريحاوي، (عبد القادر)، **المدرسة الجقمقية في دمشق**، مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد العاشر، ١٩٦٠، المقال بالكامل.

أما الصحن فصغير مربع الشكل تقريباً أبعاده (١٣×١٤م)، مسقوف بسقف مستو من الخشب، يرتفع فوق مستوى سقوف الإيوانات، زُوّد في أعلاه بمجموعة من النوافذ المستطيلة، وهي (٤) في كل جهة، وأرضه مبلطة بالحجارة الملونة والرخام، مزخرفة بأشكال هندسية، تتوسّطه بركة مثمنة الشكل من الحجارة المعشقة.

وحول الصحن إيوانات تُحيط به، وتربة تحتلّ الركن الشمالي الشرقي مسقوفة بقبة، ويُلاحظ أن الإيوانين الصغيرين الشرقي والغربي قد اتصلا بالإيوان الجنوبي، فتكوّنت منها جميعاً قاعة واحدة ترتفع عن أرض الصحن بمقدار (٧٥سم)، على شكل حرف الباء المقلوبة، وهذه القاعة مفتوحة على الصحن بـ(٣) قناطر كبيرة في الإيوان الجنوبي، وقنطرة أصغر في كل من الإيوانين الشرقي والغربي، فوق كل منهما قنطرتان صغيرتان، وأقواس الإيوانات كلها ذات حجارة ملونة بالتناوب، ومحمولة على عمودين لهما تاجان مقرنصان[٥٤١]، وهو تصميم مبتكر يجمع بين مبدأ الإيوانات والأروقة، ويفيد في إيجاد قاعة للتدريس والصلاة على هذه الرقعة الصغيرة[٥٤٢].

وفُتحت في جدران القاعة خزائن الكتب والشبابيك في الأسفل، ونوافذ من الجصّ المعشق بالزجاج الملون في الأعلى، وقد حفلت هذه القاعة بزخارف رائعة تشمل وزرة الجدران والمحراب، وهي رخامية متعددة الألوان والأشكال في الأسفل، وكسوة جصية في القسم العلوي، ويُغطي القاعة سقف مستوٍ من جسور خشبية وألواح فوقها، وكلّها محلاّة بالرسوم النباتية الملونة والأزهار، يُوحي شكلها وأسلوبها بأنها مجددة في العهد العثماني.

أما الإيوان فيحتلّ منتصف الجهة الشمالية من المدرسة، ويقع بين غرفتين صغيرتين، وهو قليل العمق، وفي جانب منه باب صغير لدرج يصعد إلى طابقين من الغرف، ويُعتقد أن تعديلاً طرأ على هذا الجانب من المدرسة غيّر شكل قوس الإيوان، وجعله يشذ عن أقواس الإيوانات الأخرى[٥٤٣].

أما المدخل فيبدأ ببوابة المدرسة المفتوحة في الجانب الأيمن من الواجهة الشمالية، ويمثل إيواناً مزوداً بمكسلتين، معقود بالمقرنصات التي تنتهي بصدفة، وفي صدر الإيوان فتحة الباب ذات إطار مستطيل مقولب، يعلوه قوس عاتق مؤلف من حجارة مفصصة متداخلة ذات لونين أسود وأبيض بالتناوب، ويعلو ذلك شريط من الزخارف، وآخر نُقشت عليه الكتابة التاريخية على طول الواجهة، ويلي الباب دهليز مؤلّف من غرفة صغيرة مربعة مسقوفة بعقد متقاطع يستند في الزوايا على كوابيل من حجارة بارزة، وتتوسط العقد قبة صغيرة صدفية ضمن إطار مثمن الأضلاع، والغرفة المذكورة مزودة بشباك يُطلّ على الخارج، وآخر يُطلّ على الداخل، وباب ينفذ إلى الصحن[٥٤٤].

٥٤١- الريحاوي، **العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا**، ص٢٠٤.

٥٤٢- **المرجع السابق نفسه**، ص٢٠٦.

٥٤٣- **المرجع السابق نفسه**، ص٢٠٧.

٥٤٤- الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص٣٢٩.

وللمدرسة واجهتان جميلتان شمالية وشرقية، بُنيتا بمداميك الحجر المتناوبة في اللون سوداء وصفراء، تتخلّلهما شبابيك مستطيلة في الأسفل، وطاقات صغيرة في الأعلى، بعضها مستدير، وبعضها مستطيل ينتهي بعقد مدبب، ويتخلّلها شريط من الحجارة المعشقة تتناوب ألوانها، ثم شريط نُقشت عليه الكتابة التاريخية بخط الثلث المذهب الناقر الجميل، ويحتلّ الشريط مدماكين، وتنتهي الواجهتان اللتان ترتفعان حوالي (٦م) بإفريز مكوّن من سلسلة من المحاريب الصغيرة تُتوّجهما شرافات على شكل المشربيات، وقد جُعلت ملونة بالتناوب أسود وأبيض.

وفي الواجهة الشرقية دخلة قليلة العمق فُتح فيها شباك في الأسفل، يعلوه محراب مُسطّح مقرنص، رُصّع أعلاه بالحجارة الملونة والخزف، وتعلوه حلية معمارية تتألف من خيوط هندسية متداخلة من ألوان عدة، وفي الواجهة نفسها حلية حجرية فوق الشبابيك تمثل قرصاً كبيراً يتوسّطه شعار (رنك) (الأمير جقمق)، وتُحيط به قطع حجرية منحوتة على شكل أواني الزهر (المزهريات) بيضاء وسوداء تتناوب في ألوانها، وفي أوضاع رؤوسها، عددها (١٢) قطعة، ويتألف الشعار من (٣) حقول: في العلوي دواة، وفي الأوسط كأس كبير عليه كأسان صغيران، وفي السفلي كأس أصغر، ويُلاحظ أن الزاوية الحاصلة من التقاء الواجهتين معدومة في القسم السفلي من البناء، فهي مقطوعة، وتقوم المقرنصات بحلّ مشكلة الانتقال بين القسمين العلوي والسفلي[٥٤٥].

وأكثر الزخارف توجد في القاعة الكبرى (قاعة الصلاة)، وفي التُربة، وتتألف من وزرة رخامية في غاية الإتقان من حيث النقوش والأشكال، تحف بها سويريات منقوشة تعلو بَعْضَها أقواسٌ مفصصة، وهناك أقراص نُقشت عليها عروق نباتية نقشاً دقيقاً، ووُشّيت بالذهب، ويُتوّج الوزرة الرخامية شريط من الآيات القرآنية نُقشت بخطٍّ نسخي جميل أحرُفُه بارزة مُوشّاة بالذهب فوق أرضية زرقاء، ويفصل بين الآيات حليات مستديرة من الزخارف النباتية، ويُحيط بالكتابة إطار مزخرف بالأوراق النباتية تُشبه الزنابق، ويلي شريط الكتابة ترخيم ملون مؤلف من لوحات مستطيلة مؤلفة من سلسلة من المحاريب الصغيرة، أقواسها ذات ألوان متناوبة، وأرضها منزلة بالفسيفساء الرخامية المطعمة بالصدف، تتألف منها مواضيع هندسية، وسويرات المحاريب منقوشة أيضاً، وفي لوحات أخرى يتغير شكل القواس، فتُصبح مفصصة مغطاة بالنقوش والتخاريم، ولوحات أخرى مستديرة منقوشة ببراعة مُوشّاة بالذهب ضمن إطار مربع، ويملأ الفراغ بين الدائرة والمربع زخارف من الفسيفساء الرخامية الناعمة المطعمة بالصدف أيضاً.

وأجمل شيء في هذه القاعة المحراب الرخامي الذي أُتقن تصميمه وزخرفته، يأتي في وسط هذه الكسوة، ويُعدّ آية في الجمال، وقد جمع أنواع الزخارف كلّها التي عرفتها المحاريب، فالحنية كُسيت بألواح طولية من الرخام الملون، تخلّلتها ألواح مزخرفة مطعمة بالصدف، ويعلو الحنية شريط يتألف من سلسلة من المحاريب المزخرفة، ثم طاسة كانت مكسوة بالفسيفساء الزجاجية، وقوس الطاسة يتألف من الرخام

٥٤٥- البهنسي، موسوعة التراث المعماري، ج١، ص١٥١.

الملون المؤلّف من أقواس متشابكة، إضافة إلى حليات زخرفية تملأ كل زاوية فيه، ويحفّ به من الجانبين سويريتان بتاجيهما وقاعدتيهما الرائعين من الرخام الملون، يعلوهما عقدٌ تألّفت واجهته من عقدين مفصصين متداخلين، وبلونين مختلفين أبيض وأسود، ضمن إطار من الخيوط المتداخلة مُلئت زواياه بالفسيفساء الدقيقة الصنع المطعمة بالصدف على شاكلة فسيفساء المحراب، ويُحيط بالمحراب من الأعلى شريط من الآيات[٥٤٦].

ومن المعلوم أن التربة تحتلّ الزاوية الشمالية الشرقية من البناء، وتضمّ قبرين كانا من الطين والقش، خلاف ما جرت عليه عادة القبور القديمة، كما أن وصفها البسيط هذا لا يتفق مع ما حفلت به المدرسة من الزخرفة، ويُرجّح أن يكون القبران محدثين، وأنه لم يكن هناك ضريح في الأصل؛ بسبب مقتل الأمير، وعدم وجود من يُعنى بضريحه[٥٤٧]، وللتربة بابٌ يُؤدّي إلى الصحن، وشبّاك في كل من الجدران الثلاثة، أحدها مفتوح على قاعة الصلاة، وهي مسقوفة بقبة عالية محمولة على (٤) أقواس تُغطّي زواياها المقرنصات، وجدران التربة مكسوة في أجزائها السفلى بالرخام والألواح المزخرفة وأشرطة من الكتابة الجميلة، كما هي الحال في قاعة المدرسة، مع اختلاف في بعض الأشكال[٥٤٨]. الشكل(١٣٦،١٣٧،١٣٨)

٣. حمام التيروزي وجامعه:

شُيّدت في دمشق في عصر المماليك عدة مساجد منها جامعان كبيران: أولهما جامع (يلبغا) الذي شيده (الأمير سيف الدين يلبغا) نائب السلطنة عام /٧٤٨هـ/١٣٤٧م/. والثاني جامع (تنكز) الذي شيده (الأمير تنكز) عام /٧١٤هـ/١٣١٤م/. وكلاهما على شاكلة جامع دمشق الأموي من حيث الصحن المحاط بالأروقة، وتخطيط الحرم، لكنهما ينتميان بعناصرهما المعمارية والزخرفية إلى العصر المملوكي.

ولكن شيدت جوامع لم يكن لها الشهرة نفسها ومنها جامع التيروزي الذي يُعدّ من المساجد الصغرى التي شُيّدت لسدّ حاجة الأحياء المحدثة، كهذا الحي المسمّى باسم المسجد أيضاً (حي التيروزي)، شيّده الأمير (عز الدين خليل التيروزي) حاجب الحجّاب في دمشق عام /٨٢٢هـ/١٤١٩م/، مع حمّام إلى جواره، و يؤلف مع المسجد مجموعة معمارية لها واجهة مشتركة على الشارع، ويُعدّ الحمّام من أهم حمّامات دمشق القديمة بتخطيطه وعناصره الفنية.

٥٤٦- الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، ص٢٠٧.

547- Gonnella, Julia y Meinecke-Berg, Viktoria، **Siria, Palestina y Egipto (ayubies, mamelucos y cruzados)** en El islam Arte y Arquitectura Editor por Hattstein, Markus y Delius, Peter, Edicion espanola, Barcelona, 2001, pp195,200.

٥٤٨- الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، ص٢٠٨.

أما المسجد فله صحنٌ مسقوف يتصل بقاعة الصلاة وبالتربة التي تضمّ ضريح الأمير المذكور، وهناك مئذنة مربعة الشكل مستقلة عن المبنى، ويشتهر الجامع بألواح القاشاني التي تأزرُ قاعة الصلاة، وهي ألواح سداسية الشكل تُعدّ أقدم ما عُرف من هذا النوع من الخزف الذي سيشيع استعماله[٥٤٩]. الشكل(١٣٩)

٤. **البيمارستان الأرغوني:**

من أهم البيمارستانات التي خلّفتها الحضارة العربية الإسلامية، أُقيم في عهد نائب السلطنة المملوكية (أرغون الكاملي) عام /٧٥٥هـ/١٣٥٤م/، وذلك من حيث تخطيطه ونظامه الدقيق، وما فيه من عناصر معمارية أصيلة.

يتألف المبنى من مجموعة من الأجنحة تتصل بالجناح المركزي من ناحية، كما تتصل بباب خاص إضافي من ناحية أخرى، عن طريق دهاليز، أو ممرات مسقوفة.

أما القسم المركزي فيتكون من صحنٍ كبير تتوسّطه بركةٌ، ويُحيط به من الجانبين الشرقي والغربي رواقان متماثلان على (٥) قناطر مزودة بأوتار خشبية مثبتة فوق تيجان الأعمدة، ويتصل بالصحن من الشمال والجنوب قاعتان كبيرتان، بينما تتوزّع الغرف الصغيرة وراء الرواقين، ومن المرجح أن تكون غُرفاً للأطباء، بينما خُصّصت القاعات الكبرى لاستقبال المرضى ومعالجتهم، أو لإلقاء الدروس على طلبة الطبّ، كما هي الحال في معظم البيمارستانات، وكذا خُصّصت الأجنحة الثلاثة المقامة في الجهة الشرقية والمتصلة بالجناح الرئيس عن طريق ممرّ في الرواق الشرقي، وبدهليز يصل فيما بينها لإقامة المرضى، وبينهم مرضى الأمراض العقلية كما تُؤكّد الروايات التاريخية، ولكلّ من هذه الأجنحة فناء صغير مسقوف بقبة تتوسّطه بركة ماء، وتتوزّع حوله الخلاوي، أو حجرات المرضى، ويلاحظ من حيث التصميم أن القاعة الكبرى الجنوبية تقوم مقام إيوان كبير مفتوح على الصحن بقنطرتين بدلاً من قنطرة واحدة، ومسقوف بقبة بدلاً من القبوة، ويتصل به في الداخل جناحان على هيئة الإيوان؛ لزيادة سعة القاعة، وكذا هي الحال بالنسبة إلى القاعة الشمالية المقابلة، وهناك قاعتان أخريان موجودتان على جانبي الدهليز الممتد من البوابة الرئيسة المفتوحة في الواجهة الغربية، وهي بوابة فخمة من الحجر الجيد النحت، تُزيّنها النقوش والكتابات، عُقِدَ إيوانها بالمقرنصات[٥٥٠]. الشكل(١٤٠)

٥٤٩- الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا ، ص١٧٣.
البهنسي، موسوعة التراث المعماري، ج١، ص١٣٠.
الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص٣٣٠.

٥٥٠- الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، ص١٨٦.
البهنسي، موسوعة التراث المعماري، ج١، ص٣٠.
الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص٣٣٧، ٣٣٨.

٥. **خان خاير بك:**

يقع داخل أسوار حلب القديمة، غرب القلعة، في المنطقة العقارية التابعة لحي الفرافرة سويقة علي، محضر (٣٠٥٨)، تُجاوره من الشرق قلعة حلب، ومن الغرب سوق الدهشة، ومن الجنوب سوق الـزرب، ومن الشمال شارع جامع الحياة، ويتم الوصول إليه عبر سوق خاير بك، وهو من أشهر خانات حلب[٥٥١].

• **تاريخياً..** بناه الأمير (خاير بك بن مالباي بن عبد الله الجركسي الأشرفي) عام /٩١٨هـ/١٥١٤م/، آخر أمراء المماليك في حلب، الذي خان سلطانه (قانصوه الغوري) عندما انحاز إلى معسكر السلطان العثمـاني (سليم الأول) في معركة مرج دابق عام /١٥١٦م/، فسُمّي (خائن بك)، وكان ذكياً وقاسياً وبخيلاً.

وقد استُخدم الخان كغيره للتجارة، فهو واقع على محور تجاري رئيس في حلب القديمـة بسـوق الزرب، وكان التجار يدخلون بدوابهم المحملة بالبضائع إلى باحة الخان، ويبدؤون بتفريغ بضـائعهم فـي المحلات في الطابق الأرضي، ثم تذهب تلك الدواب إلى الإسطبل، ويصعد التجـار إلـى الطـابق الأول للاستراحة حيث غُرَفُ النوم معدّة لهم[٥٥٢].

• **معمارياً..** يتألف الخان من باحتين:

- رئيسة ذات طابقين تحوي العلوية منها أقواساً مفتوحة.
- وداخلية صغيرة مؤلفة من طبقة واحدة. (الشكل ٢٥٦)

– يقع المدخل في الجهة الغربية من الخان ضمن إيوان تعلوه المقرنصات، وهو ذو بوابة جميلة عليها نقوش غاية في الإبداع مملوكية الطراز، وكُتب على جزأي الباب على ارتفاع (٢,٥م) سطر نسـخي مملـوكي، نصّه: "مما عمل برسم المقرّ الأشرفي الكريم العالي خائر بك الأشرفي كافل المملكة الحلبية المحروسة، أعز الله أنصاره، في ربيع الأول سنة عشرين وتسع مئة"[٥٥٣].

أما واجهة المدخل الخارجية فقوس مدبب منفذ بمداميك متناوبة اللونين الأصفر والأسود، معشقة على جانبي البوابة، مع بعض النوافذ الصغيرة المرتفعة حتى مستوى الطابق العلوي، وأما الباب فضخم محاط بقـوس مدبب أصغر من القوس المدبب في البوابة، ويُستعمل فارق القطرين لتزيين المدخل، وتمتد حجارة قـوس المدخل إلى داخل الخان مشكلة قبوة متقاطعة، وتتوسّطه زخرفة دائرية، وفي الطرف الأيمن منها درجٌ يصعد إلى الطابق العلوي، أما درفتا الباب فتأخذان شكل القوس المدبب، وهو من الخشب المصفح بالحديد بوساطة مسامير حديدية كبيرة على شكل مسدسات، وإحدى درفتي الباب تحتوي على (خوخة)؛ لدخول الأفراد ليلاً إلى الخان[٥٥٤].

٥٥١- طلس، (أسعد)، **الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب**، مديرية الآثار العامة، سوريا، ١٩٥٦، ص١٢٣.

٥٥٢- دهنه، (عبد الحميد)، **الخانات المملوكية في حلب**، جامعة حلب، ٢٠٠٢، ص٣٧.

٥٥٣- حجار، (عبد الله)، **المعالم الأثرية في حلب**، منشورات جامعة حلب وجمعية العاديات، حلب، ١٩٩٠، ص٨٨.

٥٥٤- دهنه، **الخانات المملوكية في حلب**، ص٣٧.

– الفناء الداخلي يليْ المدخل، وهو فناء واسع، مستطيل الشكل تقريباً، تصل مساحته إلى (٨٠٠م٢)، تُحيط به أروقة بأقواسها المدببة التي تستند إلى دعامات مستطيلة، وخلف الأروقة غرفٌ صغيرة سقوفها مهدية كانت تُستخدم لخزن بضائع التجار، تتوسّطه بركة ماء، والنباتات والأشجار لتلطيف الحرارة، وإعطاء منظر جميل (الشكل ٢٦٠)، أما كبر مساحة الفناء فتساعد على تأمين النور والهواء للحجرات المحيطة به، وتظهر على الجدار الغربي لباحة الخان، وعلى ارتفاع (٣م) كتابة في (٣) سطور بخطّ نسخي مملوكي متأخر، نصّها: "بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، أمر بعمارة هذا المكان المنتقل إلى رحمة الله خاير بك بن عبد الله، والمنزل بوجهه الأمير غلبك الزيني النيربي، في أيام مولانا السلطان سليمان، عزّ نصره، وكان الفراغ بتاريخ سنة ثمان وعشرين وتسع مئة للهجرة"[٥٥٥].

– يحيط الرواق بالفناء في كلا الطابقين الأرضي والأول، وقد عانى الرواق في الطابق الأرضي من جشع أصحاب المحلات، وتمّ ضمُّه إلى محلاّتهم، أما في الطابق الأول فما زال محافظاً على وضعه كما كان.

– الإسطبل يتم الوصول إليه بالانتقال من الفناء عبر رواق مسقوف يتمحور مع المدخل إلى فسحة داخلية صغيرة يتوزّع حولها عددٌ من الحجرات على طابق واحد فقط، كانت فيما مضى تُستعمل إسطبلاً.

– كان المسجد سابقاً في الفناء، سقفه قبو متقاطع، مستند إلى (٤) ركائز حجرية ضخمة في أربع زواياه، وحالياً أصبح محلاّت تجارية، والمسجد أصبح فوق تلك المحلات، ويتم الوصول إليه عبر الواجهة الخارجية للمسجد[٥٥٦].

ويتكوّن الطابق الأول من حجرات موزعة حول الفسحة، يتقدّمها رواقٌ، وقد كانت تُستخدم للنوم، والأروقة ترّاسات مشتركة، وما زال الطابق محافظاً قدر الإمكان على وضعه الأصلي؛ إذ إنه لم يتعرض لتشويهات أو تعديلات كما الطابق الأرضي.

– تبرز الأكشاك في الجزء فوق المدخل من الجهة الداخلية والخارجية، وهي صالة ذات سقف خشبي وأعمدة دائرية، وإنارتها تتمّ عن طريق نوافذ علوية.

ثم إن قرب الخان حالياً من الشارع المحدث ساعد على تسليط الضوء عليه، وازدياد حركة التجار والزبائن أكثر أدّى إلى حدوث تغييرات فيه بما يتناسب مع متطلباتهم[٥٥٧]، وبسبب عدم صيانة الأسقف الخشبية في أروقة الخان، وتأثرها بعوامل الجو، سقطت أجزاء كبيرة من السقف، ولاسيما في الطابق الأول، ومن أجل الحماية من أشعة الشمس صيفاً، والأمطار شتاء، تمّ رَفْعُ سَقْفٍ بديل لم يكن كالسابق، بل كان سقفاً بيتونياً نُفِّذَ تنفيذاً سيئاً لم يتلاءم مع الطبيعة المعمارية للخان، ومن ثم لا بدّ من دراسة الوضع الحالي، وإجراء

٥٥٥- المرجع السابق نفسه، ص٣٨.

٥٥٦- دهنه، الخانات المملوكية في حلب، ص٣٩.

٥٥٧- المرجع السابق نفسه، ص٤٠.

الترميمات اللازمة للخان من قبل مديرية الآثار والمتاحف؛ بهدف حماية الخان، والحفاظ عليه موقعاً أثرياً وتاريخياً مهماً يغطي حقبة زمنية خاصة بحلب[٥٥٨]. الشكل(١٤١)

٦. **قصر الزهراوي:**

من أشهر بيوت حمص الأثرية، وأقدمها، مملوكي، يرجع إلى سنة/٦٦١هـ/، وقد أُرّخ استناداً إلى كتابة تأسيسية منقوشة منزلة في الواجهة الشمالية المطلّة على باحة الدار، وقد بناه (أبو الفضل الأزهري)، وقد كُتب على حجرة أبعادها (١٣١×١٩,٥سم) ما نصّه: "بسم الله الرحمن الرحيم، عمّر هذه الدار وملكها علي بن أبي الفضل الأزهري، ووقفها لمن بعده، ولأولاده".

وتُفضي إلى الدار المذكورة بوابة تعلوها قنطرة ذات أقواس من الأنموذج ثلاثي الفصوص، وتعلوها كتابة نصّها: "عمّر هذه الطرية الحق الأبر علي الأزهري، في تسار". و(تسار = ٦٦١)، وقد أُلغيت هذه البوابة، واستُعيض عنها بالدخول من القسم الغربي الذي انهار، وأُعيد بناؤه، وجُعل مدخله يفضي إلى الدار[٥٥٩].

وقد سُمّي نسبة إلى الأسرة التي أقامت واستقرت فيه، وذلك يخلق نقاشاً في وجوب تسميته (قصر الأزهري) لا (قصر الزهرواي)، وقد تمّ استخدامه داراً للحُكم في حمص بعد القلعة، وذلك في نهاية عهد الأسرة الأسدية، كما أن هذا القصر بقي مستعملاً حتى بعد دخول العثمانيين إلى الديار الشامية.

وهو يحمل طابعاً فريداً من نوعه في سوريا من حيث خصوصية البناء[٥٦٠]؛ لذا سُجّل أثرياً عام /١٩٦٧/، واستملكته مديرية الآثار والمتاحف سنة /١٩٧٨/؛ بغية المحافظة عليه، وترميمه، وتوظيفه متحفاً للتقاليد الشعبية، وهو قيد الترميم حالياً.

تتألف الدار الحالية من قسمين: القسم المملوكي القديم، والقسم العثماني المحدث.

يتألف القسم المملوكي من ممرّ يُؤدّي إلى صحن تُحيط به الأجنحة من الجهات كلها، والمبنى من طابقين يتألف القسم الجنوبي منه من إيوان تعلوه قبة صدفية الشكل تُحاط في أسفلها بمقرنصات، ويحفه من الجانبين غرفتان.

والتسقيف في الأجزاء العامة من القصر تمّ بوساطة القباء، وهي سقوف الغمس (بالعامية) المعقودة بالحجارة العشيمة المكسوة بالكلسة، وهي قباء طولية لها مقطع الأقواس المدببة.

والإيوان في حمص غرفة لها (٤) جدران، والجدار الرابع مفتوح على الباحة مباشرة يتجه حسب هبوب الريح الرطبة، أي الشمال، فهو للجلوس في أيام الصيف، وغالباً ما يحوي جناحاً للاستقبال وغرفتين بجانبه.

٥٥٨- **المرجع السابق نفسه**، ص٤١.

٥٥٩- طقطق، (جاكلين)، والمصري، (عماد)، **البيت العربي في مدينة حمص القديمة**، رسالة ماجستير في كلية الهندسة المعمارية بجامعة دمشق، غير مطبوعة، دمشق، ١٩٩٢/١٩٩٣، ص١١.

٥٦٠- جبور، (فريد)، **قصر الزهراوي في حمص**، اكتشف سوريا، الأوس للنشر، حمص، ٢٠١٠.

وداخل الجناح قاعتان، تعلو الأولى قبة، وتحف بكل منهما غرفتان مستوفتان بعقود، أما القبة الوسطى فتتميز بوجود عنق مليء بالنوافذ الصغيرة، وزوايا الانتقال مزينة بالمقرنصات.

والجناح الشمالي (الملكي) عن قاعة رئيسة، تعلوها قبة تحفّ بها من الجانبين قاعتان أصغر، سقفاهما من العقود، وتعلوهما قاعتان متناظرتان تُطلاّن على القاعة الوسطى، ويعلو سقفيهما قباب، ويتم الوصول إليهما عن طريق درجين في الجهتين الشرقية والغربية مروراً بشرفتين تُطلاّن على باحة الدار، ويشمل الطابق الثاني كامل المبنى، عدا الجناح الجنوبي.

ولا بدّ من ذِكْرِ أن هذه الواجهة تحوي رنك (الظاهر بيبرس)، وكتابة تأسيسية يقال إنها تعود إلى العصر الأموي، وهي مجلوبة، والرنك يمثل اثنين من حيوان البيبر[٥٦١] متقابلين، وبينهما ما يُشبه الزهرة، لكنها هنا مرممة بحجارة بيضاء، ولكنها غير منسجمة مع روح المبنى، مما يدل على احتمال كونها ترجع إلى مبان أقدم منه، ولم تُحدّد ماهيتها.

أما الواجهتان الغربية والشرقية فتحويان عدداً من الغرف، كما تحوي الواجهة الشرقية كتابة فوق ساكف الباب، نصّها: "أشهد أن لا إله إلا الله"، ولا بدّ من ذكر أن هذا القصر كغيره من العمائر المملوكية في حمص تميز بالعمارة البلقاء، أي تناوب الحجارة البيضاء الكلسية والسوداء في بعض الأحيان، وفي سواكف الأبواب والنوافذ.

إضافة إلى كون قصر الزهراوي يقوم على أنقاض مبان أقدم منه، يدل على ذلك قبوان من العصر البيزنطي اكتُشف تحتهما مدفن بيزنطي في الجناح الجنوبي، ووجود أقبية في الجهة الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية بناؤها بيزنطي، وكذلك جرن المعمودية الذي نُقل لحقبة من الزمن إلى كنيسة أم الزنار، ثم أُعيد لاحقاً إلى القصر[٥٦٢].

وقد بُلّطت أرض القصر بالحصى البازلتي الأسود، وفي سنة /١٩٩٠/ اكتشفت دائرة آثار حمص صهريجاً مائياً أبعاده (٤×٤×٤م) لحفظ الماء، إضافة إلى بئر ماء.

وقد قامت دائرة الآثار ببناء البركة الحالية المثمنة الشكل من الحجر البازلتي.

وتنطبق على قصر الزهراوي معظم سمات العمارة المملوكية، غير أنه فقير بالعناصر الزخرفية، وتخطيطه العام يُوحي بكونه مقرّاً للحاكم، أي إنه يحمل وظيفة سياسية اجتماعية، وهذا ما يدل عليه الطابق العلوي في هذا القسم؛ إذ نلاحظ أنه ملئ بالفراغات الصغيرة نسبياً، والتي يصعب استخدامها في الاستعمال اليومي، وكذا تداخُل قاعاته وارتفاعها الضخم.

٥٦١- البيبر حيوان بري شكله بين الفهد والقط. الريحاوي، **العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا**، ص١٨٧.

٥٦٢- أسعد، (عيسى)، وخوري، (منير)، **تاريخ حمص منذ ظهور الإسلام حتى يومنا هذا /٦٢٢-١٩٧٧م/**، مطرانية حمص الأرثوذوكسية، ١٩٨٤،ج٢، ص٢٣.

والتيجان على الأعمدة في شرفات الواجهات مجلوبة من عصور أخرى سابقة، وتبين أن أحدها تعرض للترميم[٥٦٣].

ولا بدّ في الختام من التذكير أن القسم المتبقي من القصر لا يحتوي على جناح الخدمات من مطابخ وإسطبلات ومعيشة الخدم، فقط غرفة المؤونة، مما يُرجح كونها مهدمة، علماً أن جزءاً من البناء من الناحية الشرقية مهدوم، وبُني جامع مكانه؛ إذ أُلحق بالقصر خلال الحقبة العثمانية بناء يمثل مضافة وجامعاً بناهما الشيخ (موسى بن زهرة)[٥٦٤]. الشكل(١٤٢،١٤٣)

٥٦٣- طقطق والمصري، البيت العربي في مدينة حمص القديمة، ص١١.

٥٦٤- المرجع السابق نفسه، ص١٢.

الفصل العاشر

العمارة الإسلامية في العصر العثماني

أولاً.. تمهيد تاريخي:

انبثقت الدولة العثمانية من إمارة صغيرة غرب الأناضول (آسيا الصغرى) كانت إلى جانب الإمارات السلجوقية الأخرى، وعلى رأسها سلطنة سلاجقة الروم في قونيا، وقد رأينا كيف فُسح المجال أمام القبائل التركية المسلمة؛ للاستقرار في الأناضول في أعقاب النصر الذي حقّقه السلاجقة على البيزنطيين في معركة (ملاذ كرد) المشهورة عام /٤٦٣هـ/١٠٧١م/، وكان ضعفُ السلاجقة في القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي وكذا ضعفُ البيزنطيين، قد شجّعا الأتراك العثمانيين للتوسُّع على حساب هاتين الدولتين، فاحتل (عثمان الأول بن أرطغرل بن سليمان شاه/١٢٨١-١٣٢٤م/) ــ وإليه يُنسب العثمانيون ــ مدينة بورصا عام /١٢٩٩م/، واتخذها عاصمة للدولة الفتيّة، ثم احتل إذنيق عام /١٣٣١م/، وجاء بعده (مراد الأول)، فاحتل عام /١٣٦١م/ قطعة من أوروبا عُرفت باسم (تراكيا)، ومن أهم مدنها: سالونيك، وصوفيا، وبلوفديف، وأدرنة التي نَقَلَ إليها العاصمة، إلى أن تمكّن السلطان (محمد الفاتح) من فتح القسطنطينية التي غدت العاصمة الثابتة للدولة العثمانية عام /١٤٥٣م/، وعام /١٤٦٠م/ تم الاستيلاء على طرابزون، وعلى ما تبقى في يد الدولة البيزنطية، وقُضي عليها نهائياً، وتبع ذلك الاستيلاء على شبه جزيرة القرم.

اتجهت الدولة العثمانية ــ بعد أن ضمّت سائر الأناضول إليها ــ نحو العالم العربي، فَقَضَتْ على دولة المماليك في الشام ومصر والحجاز، في عهد السلطان (سليم الأول) عام /١٥١٦و١٥١٧م/، وتابعت فتوحاتها وفتحت البلاد العربية في شمال أفريقيا باستثناء المغرب الأقصى، فاستحالت الجزائر ولاية عثمانية عام /١٥١٨م/، وتبعتها تونس عام /١٥٧٤م/، ثم انتصرت على الدولة الصفوية في العراق عام /١٥٣٤م/.[٦٨٣]

أما في أوروبا فقد استمر التوسع فيها حتى غدت أوروبا الشرقية جميعها أملاكاً عثمانية ضمّت: بلغاريا، وهنغاريا (المجر)، ويوغسلافيا، واليونان، وجزءاً من بولونيا، وروسيا، وانتشر الإسلام في بعض مقاطعاتها، ولا سيما في: صربيا، ومكدونيا، والبوسنة، والهرسك.

وهكذا تحولت الدولة العثمانية إلى إمبراطورية واسعة، بل أقوى دولة في العالم وقتئذ، فهي تمتد على (٣) قارات، وينضوي تحت لوائها قسمٌ مهمّ من العالم الإسلامي.

بدأت مسيرة التقهقر بإخفاق السلطنة العثمانية في احتلال فيينا عاصمة النمسا عام /١٦٨٣م/، وتوالت هزائمها؛ بسبب يقظة الدول الأوروبية، وتألّبها ضدّها، وأسهم في هذا التقهقر فسادُ الإدارة وبطانة السلطان وأعوانه، وضعفُ بعض السلاطين، وعدمُ نهوضهم بالمسؤولية المنوطة بهم حقّ القيام، وبدأت الدولة تتخلّى عن أملاكها وولاياتها واحدة تلو أخرى، إلى أن كانت الضربة القاضية في أعقاب الحرب

٦٨٣- دايب، (فيرينا)، وتوبولو، (إنجي)، **العثمانيون سلطنة دامت ست مئة سنة**، في اكتشف الفن الإسلامي في حوض المتوسط، كتاب صادر عن متحف بلا حدود، دار الفكر، دمشق،/٢٠٠٧/، ص/٢٢٧، ٢٣٣/.

العالمية الأولى سنة /١٩١٨م/، وتحولت إلى جمهورية تركيّة تقتصر أملاكها على الأناضول وقطعة صغيرة من أوروبا تمتد بين إستنبول وأدرنه[٦٨٤].

هذا من الناحية السياسية أما من الناحية الحضارية فقد أمدّت الفتوحات دولة العثمانيين بقوى مادية ومعنوية ساعدت على ازدهار الحضارة، فبضمّها البلاد العربية ورِثَتْ ما لديها من تراث روحي وثقافي، وانتقل مركز الخلافة من القاهرة إلى إستنبول، وأصبح من ألقاب السلطان العثماني لقب (خادم الحرمين الشريفين)، إضافة إلى احتوائها على العواصم العربية الأخرى، كدمشق، والقدس، والقاهرة، وبغداد، وغيرها، وأصبحت إستنبول مركز الثقل في العالم الإسلامي كلّه، وموئلاً لعلمائه، ومقرّاً لتراثه العلمي والثقافي والفني[٦٨٥]. الشكل(١٨٤)

ثانياً.. الحركة العمرانية وخصائص العمارة العثمانية:

إن امتداد أملاك الدولة العثمانية، وتوسُّعها في أراضي لم يدخلها الإسلام من قبل، أحدث حركة من العمران واسعة تجلّت في الدرجة الأولى في بناء المساجد والمجمعات الدينية والثقافية التي تضمّ: المسجد، والمدرسة، والمستشفى، والتكية، وغير ذلك، فالعمائر المشيدة على مدى (٦) قرون عاشتها الدولة العثمانية ــ وهي حقبة لم تبلغها أيّ دولة من دول الإسلام من قبلُ ــ ألّفت تراثاً ضخماً نجدُ معظمه في الأناضول والولايات العربية؛ لأن ما كان منها في الولايات الأوروبية قد اندثر معظمه، وبين هذا التراث المعماري: جوامع، ومدارس، ومجمعات، وأسواق، وخانات، وتُرَبٌ، وسُبُلٌ، وحمامات، وقصور، ومنازل.

و قبل البدء في تحليل خصائص العمارة العثمانية لا بد من الإشارة إلى الأسس التي أسهمت في تكوينها وإعطائها الصفة المميزة، فهي لا شكّ قد انطلقت من القواعد التي رسّخها السلاجقة في الأناضول، ولاسيما من ناحية التخطيط، ثم عمد المهندسون العثمانيون إلى تطويرها وتجاوُزها في محاولات جريئة للتجديد والابتكار، وخَلْق نتاج متميز، متأثرين بعض الشيء بالبيئة المحلية والتقاليد الفنّية الموروثة عن البيزنطيين والأرمن، وعن الأقاليم الإسلامية، كإيران، والشام، ومصر، وهكذا تأصّل وترسّخ فنّ له خصائصه ومميزاته، وانتشر في أنحاء الإمبراطورية العثمانية، وأصبح يمثل حلقةً جديدةً في سلسلة مراحل تطوُّر العمارة الإسلامية، حلقةً غنيّةً بنتاجها وببراعة مهندسيها الذين اشتُهر منهم المهندس (سنان باشا).

وفي دراست خصائص العمارة العثمانية ستُعطي المساجد مزيداً من عناية؛ لِمَا طرأ عليها من تطوُّر ملحوظ في الفنّ المعماري، وفي التصميم، وفي استخدام العناصر، ورأينا تسهيلاً للدراسة والبحث أن نُصنّفها بحسب مراحل التطوّر الرئيسة الآتية:

- مرحلة ما قبل فتح القسطنطينية.
- مرحلة ما بعد فتح القسطنطينية.

٦٨٤- دايب، (فيرينا)، وفيريولو، (إنجي)، العثمانيون سلطنة دامت ست مئة سنة، ص/٢٣٣، ٢٤٤/.

٦٨٥ - الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية: ص/٤٢٧، ٤٢٨/.

- عهد المهندس سنان باشا وتلامذته.
- مرحلة دخول تيارات العمارة الأوروبية في القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي، وما بعده.

ومن الأفضل قبل استعراض هذه المراحل إدراج الصفات العامة التي تميزت بها العمائر العثمانية عامة والمساجد والعمائر الدينية بشكل خاص.

المظهر العام للعمائر:

تبدو الجوامع العثمانية من الخارج كتلة متراصّة بالغة الضخامة والارتفاع، فهي تُبنى غالباً مرتفعة عن سطح الأرض، أو فوق سوق أو دكاكين، ويُصعد إليها بأدراج عدة، وتبدو في هذه الكتلة القبيبات وأنصاف القباب ملتفة حول القبة المركزية الأمّ البالغة الارتفاع، وتتدرّج الارتفاعات بتناسق وانسجام في هذه الكتلة التي تتخلّلها الأشكال والعناصر المتنوعة كالنوافذ، والشمسيات (النوافذ الجصية)، والقناطر، والرفاريف، والدعائم الجدارية البارزة، ونجد المآذن قد انطلقت من خلال الكتلة بقوامها الممشوق، ورشاقتها البالغة، وبشرفاتها المتعددة، ورأسها الدقيق المخروطي، وهكذا يطغى التكوين المعماري وجمال التصميم على الزخرفة في المظهر الخارجي وفي الواجهات.

العناصر المعمارية:

غدت **القباب** العنصر الأساسي في التسقيف، بينها: القبة الكبيرة المركزية، وأنصاف القباب الملحقة بها، والقبيبات التي تُغطي الأروقة والغرف وبعض أطراف قاعة الصلاة وأجنحتها المنخفضة، وقد بُذلت الجهود لزيادة قُطْرِ القبة المركزية وارتفاعها، فبلغ قطرُها في السليمية في أدرنه (٣١,٥م)، ووصل ارتفاعها في السليمانية في إستنبول (٥٣م)؛ إذ أراد المهندس بهذين الرقمين القياسيين تحدّي قبة آيا صوفيا التي ظلت تُعدّ فريدة بين سائر قباب العالم القديم، فقطرها (٣٠,٩م)، وارتفاعها (٥٥,٩٢م).

وتتكوّن القبة في العمارة الإسلامية العثمانية: من طاسة كروية الشكل تقلّ قليلاً عن نصف كرة، كُسيت من خارجها بصفائح الرصاص، ومن رقبة أسطوانية تميل قليلاً نحو الشكل المخروطي أو قطاع من مخروط، زُوّدت بعدد كبير من فتحات النوافذ تفصل بينها دعامات بارزة، وتبدو الرقبة من الداخل أقل وضوحاً وتميزاً من طاسة القبة، وقد استُخدمت عقود واسعة عالية تعتمد على دعائم ضخمة لحمل هيكل القبة، هذا هو الشكل العام الكلاسيكي للقباب الكبرى بَعْدَ فَتْحِ القسطنطينية، أما قبل ذلك فكانت على شاكلة القباب الإسلامية التقليدية، رقبتُها مثمنة الأضلاع قليلة الارتفاع، يتخلّلها عددٌ قليل من النوافذ.

كذا ظلّت القباب الصغيرة، أو الثانوية، على الصفة السابقة برقبة قليلة الارتفاع، أو من دون رقبة، وطاستها غالباً نصف كروية.

أما أنصاف القباب التي جُعلت رديفاً للقباب المركزية، واستُخدمت لتسقيف القطاعات المستطيلة (نصف مربع) المتفرعة من حيز القبة المربع، فهي على شاكلة القباب المركزية، فيها ما يُعادل نصف رقبة ونصف العدد من النوافذ، ويتفرع عنها أنصاف قباب صغيرة تُكمل تغطية القطاع.

أما وساطة الانتقال بين المسقطين المربع والدائري في أركان القباب فهو المثلث الكروي الذي تُزيّنه أحياناً المقرنصات، ولا بدّ من أن نُشير هنا إلى وساطة انتقال من نوع خاص شاع استعمالها في بداية العهد العثماني في عمائر بورصه وأدرنه، وهي مجموعة من الأشكال الموشورية، تملأ الأركان، وتُحيط بالجدران؛ لتحمل طاسة القبة ذات المسقط المستدير، وهذا الشكل متطور كما نعتقد عن المثلثات التي استُعملت في عمائر سلاجقة الروم، كما هو الحال في قبة (قرطاي مدرسة) في قونيا، وهذان الشكلان السلجوقي والعثماني لا نجدهما في غير الأناضول والمدن التركية.

ونجد القباب الكبرى المركزية محمولة على قناطر واسعة مليء جزؤها العلوي (فتحة العقد) بصفوف من النوافذ، في حين يحتلّ القسمَ السفليَّ مجموعةٌ من القناطر الصغيرة، هذا إذا لم ينبثق عن القنطرة الكبرى نصف قبة.

ولا شكّ في أن هذا التكوين المعماري للقبة ونصف القبة والقبيبة والرقبة وتوزيع النوافذ وتصميم القناطر الكبرى، فيه كثير من الاقتباس من آيا صوفيا الكنيسة البيزنطية التي تحوّلت إلى مسجد منذ الفتح.

والشكل العام **للعقود**، ولا سيما العقود الكبرى الرئيسة، كان من النوع المدبب الذي يُرسم من مركزين، واستُخدم في أماكن أخرى، كقناطر الأروقة مثلاً، عقدٌ من النوع الذي أسميناه (الفارسي) الذي يُرسم من (٤) مراكز، وقوساه العلويان مقعّران نحو الخارج، وإلى جانب هذين النوعين هناك: العقد نصف الدائري، والعقد المجزوء، ونقصد به ذلك الذي تكون فتحتُه أقلّ من نصف الدائرة، ونجده مستعملاً غالباً في الأبواب، وهناك العقد العاتق الذي يعلو سواكف الشبابيك، وهو من النوع الفارسي غالباً.[٦٨٦]

ونلفت الانتباه هنا إلى نوعٍ من العقود ظَهَرَ في عمائر بورصه، ولم يُعرف في أماكن أخرى، ويتكوّن من قطاع مستقيم في الأعلى، وقوسين على الجانبين، كالذي نجده في عقد إيوان القبلة في (يشيل جامع او الجامع الأخضر) في بورصه، وفي قناطر الرواق الذي يتقدم قاعة الصلاة في جامع (يلديريم بيازيد).

واستُخدمت **العضائد** الضخمة؛ لحمل القباب الكبيرة المركزية، وهي على أشكال: مربعة، أو مضلعة، أو أسطوانية مخددة (ذات قنوات شاقولية)، أو صليبية المسقط، ويُلاحظ أنها لا تنتهي عند ارتكاز العقود عليها، بل تستمرّ لتبرز حول رقبة القبة، وتبدو كالأبراج معممة بالقبيبات المحززة، كما في: السليمية في أدرنا، و(صوكولو جامع)، وغيرهما.

أما **الأعمدة** فمنحوتة من الرخام أو الحجر، واستُخدمت لحمل قناطر الأروقة والقناطر الثانوية في قاعة الصلاة، وكانت التيجان السائدة من النوع المقرنص الذي وجُد أول استخدام له في عمائر الأيوبيين في حلب، وكذلك ظهر نوع جديد من التيجان مكون من مجموعة موشورات أو معينات؛ لذا أُطلق عليه بالتركية (بقلاوة).

---

[٦٨٦] – الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٤٢٨، ٤٣٢/.

وتغير شكلُ **المئذنة** عما كانت عليه العصور الإسلامية السابقة؛ إذ كان يغلب عليها الشكل المربع والمضلع، ولا شكّ في أن الأصل السلجوقي ظاهرٌ في الشكل الأسطواني العام في المآذن العثمانية، لكن التطور الذي حَدَثَ جَعَلَ المئذنة أكثر ارتفاعاً ورشاقة، وجسمُها إما أسطواني مزوّد بالأخاديد الشاقولية، وإما كثير الوجوه، كذلك غدت المئذنة متعددة الشرفات، وتنتهي في أعلاها برأس مخروطي دقيق مصفح بالرصاص، وتُدعى معمارياً (المآذن القلمية)، وهي ما تُميّز العصر العثماني.[٦٨٧]

وتبدو **البوابات** المؤدية إلى المسجد، أو إلى قاعة الصلاة، اعتيادية متناسبة مع ارتفاع الواجهات، وأقل ارتفاعاً من الواجهات، بخلاف ما شاع في العصر المملوكي؛ لإعطاء البوابات اهتماماً أكبر، لدرجة تجاوز ارتفاع بعضها ارتفاع الواجهات نفسها، وخلافاً لبوابات العمائر ــ في إيران والشرق الإسلامي في عَهْدِ دُول المغول ــ المفتوحة على إيوان واسع بالغ الارتفاع والعرض والعمق، ويُلاحظ أن العناية في الزخرفة موجهة خصوصاً إلى بوابات الحرم التي تزدان بالمحاريب الجانبية المزخرفة بالنقوش والمقرنصات والسويريات الملتصقة في مقدمة البوابة، وعلى جانبي المحاريب، وبالأشرطة الكتابية المذهبة، ويُذكرنا هذا الوصف بالبوابات السلجوقية.[٦٨٨]

أما **النوافذ** في الطابق السفلي فمستطيلة مستورة بحاجز من قضبان النحاس، يعلوها عقدٌ عاتق مصمت من النوع المدبب الفارسي، وهناك النوافذ في أعالي الجدران، وفي رقبة القبة، ونصف القبة، التي تملأ فتحات العقود، فمعظمها متشابه، يعلوها قوس دائري أو مدبب، مستورة أحياناً بالنقوش الجصية المعشقة بالزجاج الملون (الشمسيات)، ومن النوافذ ما هو مستدير حسب مقتضيات المكان.

العناصر الزخرفية:

سبق أنْ ذكرنا أنّ التكوين البنائي جَعَلَ العناصر المعمارية في العمائر العثمانية تطغى في الواجهات الخارجية على العناصر الزخرفية؛ لتُشكّل مصدر الجمال، أما في الداخل فنجد الترخيم، أو ألواح الخزف (القاشاني أو الكاشي)، في وزرة الجدران، فقد ارتقت صناعة الخزف، وأصبحت قِطَعُهُ ألواحاً مربعة (٢٠×٢٠سم)، وأحياناً مسدسة الشكل، عليها رسوم للأزهار والنباتات الملونة، وتكسوها طبقة من الزجاج، والقاشاني هذا يُنسب إلى مدينة قاشان في إيران، وكانت أشهر مصانعه في كوتاهيه وإذنيق، ونجده أحياناً في كسوة المحاريب والنوافذ وفي أماكن أخرى محدودة.

واستُخدمت النقوش الجصية استخداماً محدوداً في طاسة القبة، وفي زوايا الانتقال في القباب، وهي ذات أشكال هندسية أو نباتية، أو كتابات على أقراص أو أشرطة في أعالي الجدران الداخلية.

ونجد المقرنصات تُزيّن الأبواب الرئيسة، وفي المحاريب، وتُغطي زوايا الانتقال في بعض القباب.

---

٦٨٧ – الريحاوي، قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني، ج٢، ص/٥٦٧/.

688 – Gladib, Almut، **El Imperio Otomano en El islam Arte y Arquitectura** Editor por Hattstein, Markus y Delius, Peter, Edicion espanola, Barcelona, /2001/, pp/534, 539/.

وأخيراً هناك العنصر التقليدي المقتبس من الشام ومصر، وهو تناوُب الألوان في فقرات معظم العقود[٦٨٩].

ثالثاً..العمارة الدينية:

إن مظاهر التطور في تخطيط المساجد ولاسيما قاعة الصلاة قد مرت بخمس مراحل:

✿ مساجد المرحلة الأولى:

وتمتد من قيام الدولة العثمانية في مطلع القرن الثالث عشر وحتى فتح القسطنطينية في عام/٨٥٧ هـ/١٤٥٣م/. وستشاهد في هذه المرحلة عدداً من نماذج التخطيط في مساجد بورصة العاصمة الأولى وفي إذنيق وإدرنه. فإذا تم فحص هذه العمائر العثمانية الأولى وجُد متأثرة إلى حد كبير بتخطيط المدارس التي أنشأها سلاجقة الروم في الأناضول التي تقوم على أساس الصحن المسقوف المحاط بالأواوين والغرف التي تحتل الأركان ومتأثرة كذلك بالمساجد الصغيرة التي شيدها السلاجقة (سيراجلي مسجد وطاش مسجد) في قونية التي تقوم على أساس القاعة المربعة المسقوفة بقبة واحدة يتقدمها رواق بدلاً من الصحن. ونموذجاً عنها:

يشيل جامع في بورصة:

ويشيل تعني الأخضر. لا يختلف هذا المسجد في تصميمه عن مسجد يلديرم. شيده السلطان جلبي محمد بن بايزيد بين عامي/٨١٥-٨٢٢هـ/١٤١٢-١٤١٩م/. يتميز بعناصره المعمارية وبطريقة التسقيف بالقباب والأقباء بوسائط الانتقال الخاصة التي تفردت بها مباني هذه المرحلة[٦٩٠] وكذلك بعقود الأواوين الفريدة من نوعها المستقيمة في أعلاها. وقد جعلت مقصورة السلطان في هذين المسجدين في الجناح الشمالي يصعد إليها من درج في المدخل الرئيس وهي تطل على الصحن المسقوف وإيوان الصلاة. وإلى جوار المسجد أقيمت تربة السلطان وهي بناء رائع في زخرفته وهندسته[٦٩١] الشكل(١٨٥)

✿ مساجد المرحلة الثانية:

بعد فتح القسطنطينية عام/٨٥٧هـ/١٤٥٣م/ حول العثمانيون كنيسة القديسة أيا صوفيا التي ترجع إلى عهد الإمبراطور جستينيان من القرن الخامس للميلاد إلى مسجد بعد تعديلات طفيفة. وكان مخططها يتكون من بلاطة وسطى واسعة وعلى جانبيها بلاطتان وفي البلاطة الوسطى قسم مركزي مربع مسقوف بقبة كبيرة يتصل به من الشمال والجنوب جناحان مسقوفان بنصفي قبة أقل ارتفاعاً من القبة الكبرى. وعلى جانبي المربع المركزي صفان من القناطر على طبقتين يفصلان البلاطة الوسطى عن البلاطتين الجانبيتين. ويتمثل التأثير المهم الذي تركته أيا صوفيا على المساجد العثمانية التي شيدت بعد

٦٨٩- الريحاوي، **العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا**، ص/٢١٣، ٢٢٤/.

Gladib, Almut، **El Imperio Otomano en El islam Arte y Arquitectura** Editor por Hattstein, Markus y Delius, Peter, Edicion espanola, Barcelona, /2001/, pp/540, 550/.

٦٩٠ - البهنسي، **موسوعة التراث المعماري**، ج٢، ص/٥٩١/.

٦٩١ - الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص/٤٣٥/.

سادساً.. العمارة العثمانية في سوريا:

١. العمارة العثمانية في دمشق:

كان أول عمل معماري فيها هو ما قام به السلطان (سليم الأول) في محلة الصالحية في أعقاب فتح دمشق؛ إذ أمر عام/٩٢٤هـ/١٥١٨م/ بإنشاء تُربة على قبر الشيخ (محيى الدين بن عربي) المتوفى عام /٦٣٨هـ/١٢٤٠م/، ومسجد إلى جانبها، وتكية على الطرف الآخر من الطريق، مخصصة لطبخ الطعام وتوزيعه على الفقراء، وهي بسيطة البناء، شُيّد الجامع وفق التقاليد المعمارية المحلية، سوى أن مئذنته أُقيمت فوق بوابة المسجد، وما تزال عمارة (سليم الأول) هذه التربة والمسجد والتكية باقية إلى اليوم مع شيء من تغيير.

أ. التكية السليمانية:

من أهم عمائر العهد العثماني، تحتلّ موقعاً مرموقاً في دمشق، فقد شُيّدت على ضفاف نهر بردى غرب المدينة القديمة، وما تزال إلى اليوم في حال جيدة، وهي في الحقيقة مجمع كبير على شاكلة المجمعات (الكليات) السلطانية، أمر ببنائها السلطان (سليمان) عام/٩٦٢هـ/١٥٥٤م/، واكتمل بناؤها عام /٩٧٤هـ/١٥٦٦م/، على أنقاض القصر الأبلق قصر (الظاهر بيبرس)، فحلّت محلّه[٧٢٢]، وتتألف من كتلتين معماريتين متشابهتين في التخطيط، هما: التكية في الجانب الغربي، والمدرسة في الجانب الشرقي، وتصل بينهما سوق تمتد أمام المدرسة من شمالها، مخصصة لقوافل الحجاج التي كانت تنزل في الأراضي المجاورة، كما تُشير النصوص التاريخية[٧٢٣]. (الشكل ٣١٩)

ومن حيث التصميم نجد التكية مكونة من صحن كبير تتوسّطه بركة مستطيلة الشكل، وتتوزّع حوله مجموعة من المباني تكاد تكون مستقلة بعضها عن بعض، تُحيط بها جميعاً سوق مستطيلة أبعادها (١٢٥×٩٤م)، يخترقها باب في الجهة الغربية، وآخر في الجهة الشرقية، يصل التكية بالسوق والمدرسة، وثالث صغير في الجهة الشمالية تتقدّمه قبة صغيرة محمولة على أعمدة، أما الحدائق فنجدها تشغل الفراغ الحاصل بين السور والمباني، وكذلك بعضاً من أقسام الصحن الواسع[٧٢٤].

ويظهر في طراز العمارة في التكية وزخارفها تأثيرُ فنّ العمارة العثماني في استنبول، إضافة إلى التقاليد الفنية السورية في الزخارف[٧٢٥]، وذلك بأقواسها الفارسية، وعُمُدها ذات التيجان المقرنصة، وبالقباب التي هي أداة التسقيف في كل مكان، والمداميك في الجدران، والأقواس المتناوبة في اللونين الأبيض والأسود، وفي الجهة الشمالية كتلة معمارية تتكون من مطبخ وقاعتين كبيرتين للطعام.

٧٢٢- الريحاوي، **العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا**، ص/٢٣٩/.

٧٢٣- الريحاوي، (عبد القادر)، **التكية السليمانية في دمشق**، مجلة الحوليات الأثرية السورية،/١٩٥٧/، م٧، ص/٢١/.

٧٢٤- الريحاوي، **العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا**، ص/٢٤٠/.

٧٢٥- قاجة، (جمعة أحمد)، **موسوعة العمارة الإسلامية**، دار الحصاد، دمشق،/١٩٨٧/، ص/١٢٣/.

ويحتلّ المسجد الجانب القبلي، وقد جُعل بارزا كلياً، وهو مسقوف بقبة وحيدة، ومزوّد بمئذنتين أُقيمتا في رُكني الجدار الشمالي، وينقدم قاعة الصلاة رواق مزدوج يقوم مقام المصلّى الصيفي، ويتألف المسجد من قاعة مربعة الشكل طول ضلعها (١٦م)، مسقوفة بقبة عالية من نوع القباب العثمانية ذات رقبة كثيرة النوافذ، وطاسة نصف كروية مصفحة بالرصاص، ويحمل القبة (٤) عقود ملتصقة بجدران القاعة الثخينة، ويشغل زوايا الانتقال بين عقد القبة مثلثات كروية عادية من دون مقرنصات، وتنفتح في أربعة جدران القاعة نوافذ تُطلّ على الحدائق، ويعلوها في كل جدار نافذة، وهذه النوافذ مع نوافذ القبة كانت من الجص المعشق بالزجاج الملون[٧٢٦]، وشُيّدت واجهات المسجد الخارجية بمداميك حجرية يتناوب فيها اللونان الأبيض والأسود، ولا تظهر الزخارف إلاّ في الواجهة الشمالية فقط، وهي كسوة من الرخام الملون والقاشاني الجميل، وفي هذه الواجهة يقع باب الحرم متقن البناء، المفتوح ضمن إيوان واسع معقود بالمقرنصات المزودة بالدلاّيات الحجرية، وعلى جانبيه محرابان مزيّنان بالمقرنصات أيضاً، وهناك لوحة رخامية تعلو ساكف الباب نُقش عليها سطران باللغة التركية، وبالخط النسخي، تُؤرّخ بناء التكية، ويُحيط بالباب إطارٌ من الزخارف الهندسية المركبة من تطعٍ الرخام الأبيض والأسود والأحمر، وفي زاويتي الجدار الشمالي للمسجد تقوم مئذنتان عاليتان كالأسطوانتين، لكنهما تتألفان من مضلّع متعدّد الوجوه، مشيدتان من الحجر الكلسي، ولهما رأس مخروطي مدبب يُشبه قلم الرصاص، وفي كل مئذنة شرفة وحيدة للأذان تحملها مقرنصات حجرية، أما داخل الحرم فنجد محراباً تعلوه المقرنصات، وتُحيط به زخارف من الفسيفساء الرخامية، وإلى جانبه منبر من الرخام الأبيض، وتُزيّن الجدران مجموعة من ألواح القاشاني موزعة فوق الشبابيك، ويتقدم المسجد رواق مزدوج يرتفع عن مستوى الصحن، يعتمد على صفين من الأعمدة: يتألف الصف الأول من (٤) أعمدة ذات تيجان مقرنصة، يعلو كلاً منها عقد حدوي الشكل، والرواق مسقوف بـ(٣) قباب، والصف الثاني يتقدمه في الأمام، لكن ينخفض عن الرواق الأول، ويتألف من (١٢) عموداً[٧٢٧]، ويُطلّ على صحن التكية مباشرة، وله سقف خشبي مائل محمول على قناطر موزعة موزعة على(٣) جهات: (٧) قناطر في الجهة الشمالية، و(٣) في كل من الجهتين الشرقية والغربية، وعقود هذه القناطر من النوع الفارسي الذي تتناوب فيها الحجارة ذات اللونين الأبيض والأسود، أما الأعمدة فذات تيجان مقرنصة تظهر في شكل جديد مبتكر يختلف عن التيجان المقرنصة المعروفة[٧٢٨]، ثم إن إضافة الرواق الثاني حقّق توسيعاً ملموساً للمسجد، وسمح باستيعاب المزيد من المصلين خلال فترة توافد الحجاج إلى دمشق، ولا سيما أن وجود المحاريب في صدر الرواق نفسه يُشير إلى استخدام الجدار ذاته قبلة للمصلين[٧٢٩]، ونجد في طرفي الصحن من الشرق والغرب مجموعتين من الغرف المربعة يتقدمها

٧٢٦- الحمصي، روائع العمارة العربية في سوريا، ص/٧٧/.

٧٢٧- ولتسينجر، (كارل)، الآثار الإسلامية في مدينة دمشق، ترجمة قاسم طوير، برلين، /١٩٢٤/، ص/٢٣٠/.

٧٢٨- الريحاوي، الأبنية الأثرية في دمشق، م٧، ص/٢٩٤/.

٧٢٩- ولتسينجر، المرجع السابق، ص/٢٣٠/.

رواق على قناطر، وتتوزع غُرفُ السكن على جناحين غربي وشرقي، في كل منهما (٦) غرف مربعة الشكل، يتقدمها رواق يفصل بينها وبين الصحن، وكلها مسقوف بالقباب، لكن قباب الغرف أكثر ارتفاعاً وأكبر حجماً من قباب الرواق، وقد جرى توزيع القباب في الرواق على أساس أن كل قبتين صغيرتين من قباب الرواق، تقابل قبة كبيرة من قباب الغرف الكائنة خلفها[٧٣٠]، وهناك في كل غرفة مدفئة من الحجر المنحوت، مزودة بمدخنة تبرز فوق القباب كالمئذنة الصغيرة، فضلاً عن وجود باب ونافذة يُطلاّن على الصحن، ونافذتين تُطلاّن على الحزام الضيق للحديقة التي تطوف بالمنشأة من الخلف، أما العناصر الزخرفية فتتمثل هنا بألواح الخزف المربعة (القاشاني) التي تُؤلّف لوحات جميلة فوق الأبواب والشبابيك في سائر أنحاء التكية، ويغلب على قاشاني التكية اللونان الأخضر والأزرق، في حين يندر وجود اللون الأحمر[٧٣١]. الشكل(١٩١)

أما الجناح الشمالي فتميز فيه قاعتين كبيرتين تمتدان من الشمال إلى الجنوب، إحداهما في الغرب، والأخرى في الشرق، طول كل منهما (٤٠م)، يقسمها إلى رواقين صفٌ من العضائد الغليظة تحمل قباب السقف الأربعة عشرة، ويتوسط هاتين القاعتين بناء مؤلف من (٣) غرفٍ، يتقدمه رواق محمول على أعمدة على شاكلة الأروقة المحيطة بالصحن، ويُعتقد أن الغرفة الوسطى لهذا البناء كانت تُستخدم مطبخاً، بدليل أن أربع قبابها مفتوحة في وسطها من دون سائر قباب التكية، وعليها مناور لمرور الدخان وبخار الطبخ، وهي مقسمة إلى قسمين، ومسقوفة بنوعين من القباب:

- قبة مضلعة تُغطي مكان المواقد بغرض تجميع بخار الطبخ فيها؛ من أجل عدم انتشاره في سائر أنحاء الغرفة، وتحتوي هذه القبة على مدخنة مستطيلة الشكل.
- وقبة دائرية تُغطي القسم الخاص بتحضير الطعام.

والغرفة الوسطى أكبر غرف الرواق الشمالي، ولعل الغرفتين المجاورتين كانتا لموائد الطعام، وكل منهما مزودة بقبتين دائريتين، وكل قبة محمولة على (٤) مثلثات كروية تشغل الفراغ الحاصل بين جدران القاعة وجسم القبة، ثم إن غرف التكية عموماً، بما فيها غُرفُ القسم الشمالي، خالية تماماً من أيّ نوع من أنواع الزخارف، باستثناء النوافذ المستطيلة أو المربعة التي زُيّنت بالزجاج المعشق، أما القاعتان الكبيرتان الجانبيتان فكانتا مخصصتين للمؤن، وقد بطل ذلك منذ سنوات طويلة، وشُغلت التكية ــ باستثناء مسجدها ــ بمعروضات المتحف الحربي[٧٣٢].

أما المدرسة فتُشبه في تصميمها التكية، لكنها أصغر حجماً وفيها عددٌ أكبر من غُرفِ السكن، وقاعة الدراسة هي في الوقت نفسه للصلاة، لكنها خالية من المآذن، وهي بناء مستقل يقع إلى الشرق من التكية، تبلغ أبعادها (٤٥×٤٠م)، يتوسطها صحن مزود ببركة مستطيلة الشكل، تُحيط به مجموعة من

٧٣٠- ولتسينجر، الآثار الإسلامية في مدينة دمشق، ص/٣٢/.

٧٣١- الحمصي، روائع العمارة العربية في سوريا، ص/٧٩/.

٧٣٢- الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، ص/٢٤٥/.

الغرف الصغيرة المسقوفة بالقباب، في كل منها مدفئة على شاكلة غُرف التكية، وأمام الغرف رواقٌ يُحيط بالصحن تُغطيه أيضاً القباب الصغيرة، محمول على عقود أقل ارتفاعاً من أعمدة رواق التكية، وفيها أيضاً مسجد خاص بها[٧٣٣]، غير مزوّد بمئذنة، ولا بمنبر، فهو مصلّى على شكل غرفة مربعة الشكل تبرز عن حدود البناء باتجاه الجنوب، مسقوفة بقبة لها رقبة مضلعة مزودة بالنوافذ، ولم يبق من نوافذ المسجد المعشقة بالزجاج الملون سوى واحدة فقط، وتكسو جدرانه ألواح القاشاني، وتتخلّلها شبابيك وخزائن كُتُب، وتتقدّم المسجد مصطبتان ضمن رواق مؤلّف من (٣) قناطر، زُيّنت جدرانه بأشرطة من الزخارف الملونة وبألواح القاشاني، وللمدرسة باب رئيس كبير مفتوح في منتصف واجهتها الشمالية، (٤) أخرى صغيرة تصل المدرسة بالحدائق المتصلة بها، ويؤدي الباب الرئيس إلى دهليز فُتح على جانبيه إيوانان صغيران كأنهما غرفتان للحراسة، وينتهي برواق محمول على أعمدة يُشرف على الصحن، مسقوف بـ(٣) قباب، للوسطى منها رقبة خالية من النوافذ، بل حلّ محلّها كوى مزخرفة، والباب مفتوح ضمن إيوان يُقابله باب آخر مماثل له مفتوح في الطرف الشمالي من السوق، ولكل منهما واجهة غنية بالزخارف، نجدها في العقد ذي الحجارة الملونة بالتناوب، وفي الأشرطة المنقوشة على شكل ضفائر، وفي الحليات المستديرة المرصعة، والحجارة الملونة المفصصة[٧٣٤].

أما السوق فتتألف من صفين من الدكاكين بطول (٨٥م)، في كل صف (٢٢) دكاناً تُشبه الإيوانات، مسقوفة بقباء طولية، وينتهي السوق من جهته الغربية بباب واسع يُؤدّي إلى التكية، وبباب آخر من جهة الشرق يُؤدّي إلى خارج المجمع، وهو متقن البناء، مزخرف الواجهة، وعلى الباب كتابة تُشير إلى تجديده في عهد السلطان (مصطفى الثالث) الذي تولى العرش بين عامي/١١٧١-١١٨٧هـ/،/١٧٥٧-١٧٧٣م/، وقد زال الجناح الشرقي من الصف الشمالي للدكاكين، واستُخدم ما بقي من السوق القديم مع المدرسة سوقاً سياحياً للصناعات اليدوية[٧٣٥].

وتظهر التأثيرات العثمانية أيضاً في شكل المئذنة، وفي شكل القباب، وفي معظم العقود التي جُعلت من النوع الفارسي، كما في قناطر الأروقة، وفي العقود التي تعلو النوافذ (العقد العاتق)، وكذا في المداخن الحجرية التي تبرز بين قباب الغرف المزودة جميعها بالمدافئ، وهناك عنصر يظهر لأول مرة في عمائر دمشق، هو إيوان الباب المزود في جانبيه من الداخل بمحرابين صغيرين على طريقة بوابات العمائر السلجوقية في الأناضول التي انتقلت إلى العهد العثماني[٧٣٦].

٧٣٣- الريحاوي، الأبنية الأثرية في دمشق، ص/٢٩٥/.

٧٣٤- الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، ص/٢٤٦/.

٧٣٥- الريحاوي، الأبنية الأثرية في دمشق، ص/٢٩٦/.

٧٣٦- البهنسي، موسوعة التراث المعماري، ج١، ص/٢٨٢، ٢٨٣/.

Gladib, Almut، El Imperio Otomano en El islam Arte y Arquitectura Editor por Hattstein, Markus y Delius, Peter, Edicion espanola, Barcelona, /2001/, pp /551, 566/.

ومن حيث عناصر الزّخرفة نجد ألواح الخزف المربعة (القاشاني) التي تأزر الجدران الداخلية، أو تؤلف لوحات زخرفية في الواجهات، إضافة إلى العناصر التقليدية، كالفسيفساء الرخامية، والنوافذ الجصية المعشقة بالزجاج الملون (الشمسيات)، لكن مواضيعها شملها التطور، وتأثرت بروح العصر، فهي أشجار وأزهار وعبارات مكتوبة، وكذا المقرنصات التي تطوّرت لتصبح ذات دلاّيات، وأخيراً استمرّ تلوين الواجهات بالمداميك الملونة بالتناوب على طريقة عمائر العهد المملوكي[٧٣٧].

ب. مجمع الدرويشية:

أُقيم خارج أسوار المدينة قرب بابها الغربي (باب النصر)، حيث مدخل سوق الحميدية اليوم، وقد سُمّيت المحلة ب (الدرويشية) نسبة إلى المسجد، وهو جزء من مجمع شيّده الوالي (درويش باشا) عام /٩٨٢هـ/١٥٧٤م/، ويضمّ إضافة إلى المسجد: تربةً، ومدرسةً، وسبيلاً يقع على ناصية الشارع في ركن من أركان البناء.

ويتكوّن مخطط المسجد من قاعة للصلاة مربعة مسقوفة بقبة وحيدة يتقدمها رواق يرتفع عن مستوى الصحن.

أما العناصر المعمارية والزخرفية فمزيج من العناصر المحلية التقليدية والعناصر الجديدة التي أتى بها العصر العثماني[٧٣٨]:

- فمن العناصر الجديدة: القباب الصغيرة التي تغطي الرواق، وألواح القاشاني الجميلة التي تكسو وزرات الجدران في الداخل والخارج.
- ومن العناصر التقليدية: المداميك الملونة بالتناوب، والترخيم، والفسيفساء الرخامية، والنوافذ الجصية (الشمسيات)[٧٣٩].

إذن، طراز عمارة هذه المجموعة عثماني صرف[٧٤٠].

ج. مجمع السنانية:

أنشأه الوالي (سنان باشا) عام /٩٩٥هـ/١٥٨٦م/، ويقع غير بعيد عن مجمع الدرويشية في المحلة المعروفة بـ(السنانية)، عند باب الجابية القديم[٧٤١]، وهو على شاكلة مجمع الدرويشية، لا يختلف عنه كثيراً في الفن المعماري من حيث التصميم والعناصر المعمارية والزخرفية، سوى أن مئذنته

٧٣٧- الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص/٤٩٩/.

٧٣٨- البهنسي، موسوعة التراث المعماري، ج١، ص/٢٠٩/.

٧٣٩- الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص/٥٠٠/.

٧٤٠- البهنسي، المرجع السابق، ج١، ص/٢٠٩/.

٧٤١- الريحاوي، المرجع السابق، ص/٥٠١، ٥٠٢/.

الريحاوي، **العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا**، ص/٢٢٦/.

الأسطوانية تتميز بكسوتها الخارجية المكونة من ألواح القاشاني لونها الأزرق الفيروزي، أما الحرم فغني بالزخارف[٧٤٢].

د. قصر العظم:

كان هذا البناء المشهور – والمستعمل حالياً متحفاً للتقاليد والفنون الشعبية – قصراً لوالي دمشق (أسعد باشا العظم)، بُني عام /١١٦٣هـ/١٧٤٩م/[٧٤٣]، وقد أنفق (أسعد باشا) على بنائه أموالاً كثيرة، ولعلّه جَمَعَ بعض عناصر بنائه من أطلال أبنية دمشق آنئذ[٧٤٤]، ويمثل أرقى ما وصل إليه البيت العربي الإسلامي من التطور والرقي: من حيث التصميم الذي يُوفّر الوسائل التي تتطلّبها البيئة الاجتماعية والمناخية، ومن حيث العناية بالعناصر المعمارية والزخرفية، وقد أُنشئ في قلب المدينة في الجهة الجنوبية من الجامع الأموي، أي في المنطقة التي كان يحتلّها قصر الخضراء، قصر الخليفة الأموي الأول (معاوية بن أبي سفيان)[٧٤٥].

يتألف القصر من (٣) أجنحة، أكبرها – يُطلق عليه (الحرملك)، أي جناح الأسرة، ويليه (السلاملك)، أي جناح استقبال الضيوف، والثالث بيتٌ صغير مخصص للخدم، وهناك حمام يحتل مكانا بين الحرملك والسلملك، له تصميم مماثل لتصميم الحمامات العامة، وندخل إلى القصر من بوابة تُؤدّي إلى ممرّ عريض مغطّى بعقود متقاطعة، وعن يمينه مصطبة للجلوس، وعن يساره غرفة للحارس، ويُؤدّي هذا الممرّ إلى جناحي الحرملك والسلاملك[٧٤٦].

والبناء في معظمه مكوّن من طابقين من الغرف، باستثناء القاعات الكبرى فإن ارتفاعها يُعادل طابقين، والوحدات كلّها في ثلاثة الأجنحة تُطلّ على الأفنية بأبوابها وشبابيكها ونوافذها، وأكبرها فناء الحرملك الذي تزيد مساحته عن ثلثي مساحة القصر، ويُلحق به قسم الخدم وإسطبل الخيل والعربات في الزاوية الشمالية الغربية، وتمتدّ أمامه بركة طويلة شبيهة ببركة جنّة العريف في غرناطة[٧٤٧]، وهناك النوافير، ورواقٌ من (٥) قناطر يتقدم مجموعة من الغرف، وإيوان يتوسط مجموعة غرف أخرى.

وتحتلّ القاعة الكبرى مكاناً مهماً في الحرملك، وترتفع – خلافاً لسائر الغرف – عن أرض الفناء؛ إذ يُصعد إليها بسُلّم حجري من عدة درجات، ويُلاحظ أن تصميم القاعة شبيه بالمدرسة ذات الصحن المسقوف في العهد السلجوقي، ففي الوسط عتبة واسعة بمنزلة الفناء تحتوي على بركة ماء، فوقها سقف مرتفع مزوّد بالنوافذ، يقوم مقام القبة أو المنور، وعلى جوانب العتبة (٣) إيوانات ترتفع عنها بمقدار

٧٤٢- البهنسي، موسوعة التراث المعماري، ج١، ص/٢٩١/.

٧٤٣- الريحاوي، المرجع السابق، ص/٢٢٧/.

٧٤٤- البهنسي، المرجع السابق، ج٢، ص/٣٦٩/.

٧٤٥- الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٥٠٨، ٥٠٩/.

٧٤٦- البهنسي، المرجع السابق ، ج٢، ص/٣٦٩/.

٧٤٧- المرجع السابق نفسه، ج٢، ص/٣٦٩/.

درجة تُؤدّي إلى عدد من الغرف[٧٤٨]، وكسائر البيوت العربية تتميز القاعة بعناصرها الفنية والزخرفية التي تتمثّل في الخشب، أو ما يُسمّى (الحلقة العجميّة)، والذي يزدان بالرسوم والألوان وأعمال التذهيب، وتُكسى به الجدران والسقوف، وبالرخام الملون، وهناك الفسيفساء الرخامية التي نجدها في بلاط الأرض، وفي البرك والفساقي والسُبُل والمدافئ الجدارية أحياناً، وكذا هي الحال في معظم القاعات[٧٤٩]، ونلاحظ في الواجهات المطلّة على الصحن جدراناً تُزيّنها المداميك المتناوبة الألوان، وتتخلّلها الحليات المعمارية وفتحات الغرف والقاعات المؤلفة من الشبابيك في الأسفل والنوافذ في الأعلى، مع اختلاف في ارتفاع الواجهات من مكان إلى آخر، مما ينفي الرتابة عن المنظور الأفقي للوحدات[٧٥٠].

والحمام أنموذج لحمامات القصور الدمشقية والدور الخاصة، ويُعدّ من الحمامات التي حافظت على رونقها وطابعها ومكوناتها من دون المساس بأيّ جانب منها، وقد حولت المديرية العامة للآثار والمتاحف هذا الحمام إلى متحف شعبي جزءاً من متحف التقاليد الشعبية في قصر العظم، وهو بطبيعة الحال يُشكّل جانباً من الجناح الجنوبي للقصر، وقد عده (إيكوشار) في زمرة حمامات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين[٧٥١].

يُدخل إلى البرّاني من باب فوقه قوس، وهذا البرّاني على شكل بهو مربع، في وسطه بحرة مثمنة الأضلاع منخفضة الجوانب، وهي من الرخام المشقف البديع، وفي وسطها كأس من المرمر، وحول البحرة مجراة خاصة حولها إطار مبلط من الحجر الوردي تُحيط به تربيعات من الرخام المحلى بالأسود. وفي الزاويتين الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية دائرتان من الرخام تُحيط بكل منهما تشكيلة من الحجر الأسود، أما في الزاويتين الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية فقطعة رخامية مثمنة الأضلاع يُحيط بها الحجر الأسود، وفوق هذا القسم قبة ذات رقبة تُحيط بها (٨) نوافذ، وتستند القبة إلى أربعة أقواس مزخرفة برسوم هندسية عربية التكوين تتكرر متناظرة على طرفي القوس، وهذه الأقواس تتلاقى على دعامتين في الجنوب، وتندمجان بالجدران في الشمال، ويكون اتصال القوس بالدعامة بوساطة ساعدين منتهيين بتاجين تستند نهاية القوس إليهما، والتاجان المذكوران مزخرفان برسوم نافرة، ويرتكزان على حجر منقوش بزخارف متناظرة، وفي صدر البرّاني (الجنوب) إيوان مفروش بالسجاد، وأمام جداره الشرقي مصطبة من الخشب المحفور مجللة بالمناشف، وُضع عليها تمثال شخص انتهى من الاستحمام وملفّف بالمناشف، وأمامه (قبقاب شبراوي)، وهذا التمثال يمثل المستحم وهو يخرج بالمناشف إلى البرّاني، فيستريح عقب الانتهاء من الاستحمام[٧٥٢]، وفي صدر هذا الإيوان أيضاً نُصبَ (بيرو) من الخشب المصدف

٧٤٨- الريحاوي، قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني، ج٢، ص/٦٣٢/.

٧٤٩- الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٥١٠، ٥١١/.

٧٥٠- المرجع السابق نفسه، ص/٥١١/.

751- Ecochard, M., **Les Bains de Damas**, 2 vol., Beirouth,/1942/, p/55/.

٧٥٢- كيال، الحمامات الدمشقية، ص/١٠٣/.

المطعم، وفوقه مرآة يُحيط بها إطار له تاج من النوع نفسه، أما الجدران فمزينة بالعجمي المطعم، ويتخلل ذلك شريط كتابي، وقد زُيّنت الجدران في الأعلى بلوحات كُتِبَ عليها: ﴿وما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾، و﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾، و((الله – محمد))، وفي هذا الإيوان (٤) أقواس تتلاقى كالعُقد، وهي مزينة برسوم جصية نافرة، وفي مركز تلك الأقواس المتلاقية ما يشبه القبة الصغيرة، وهي على شكل أضلاع محززة بحزوز تتلاقى في المركز، وتنفصل هذه القبة عن قبة البرّاني بالقوس الجنوبي لقبته، وتجدر الإشارة إلى الصندوق الذي بمحاذاة الجدار الشرقي، وبجانب المدخل إلى الوسطاني، وهو صندوق مصدف ومنزل بالعظم والقصدير من نوع المصري على شكل عروق نباتية وورود، كما نُشير أيضاً إلى الخزانتين (الجامين) البلوريتين المعروض فيهما أنموذجات ثمينة فاخرة من المناشف، وهي مطعمة بالذهب والفضة على شكل عروق وأزهار في زهريات، ويتم الدخول من الباب المذكور آنفا – في الجدار الشرقي للبرّاني – إلى مجاز يتفرع إلى الشمال والجنوب، في الشمال مرحاض ومقصورة للنّورة، وفوق كل منهما قبة نصف أسطوانية (جبلونة) فيها قمريات، وفي الجنوب بحرة صغيرة، وأرض ذلك المجاز مرصوفة بالحجر الوردي والأسود، وفي الشرق دهليز فوقه قبة نصف أسطوانية في صدره (مشهد) به جرة مياه الشرب.

وإلى الشمال مدخل يؤدي إلى الوسطاني الأول، وهو بهو رباعي الشكل فوقه قبة متلاقية السفوح، وفي الأطراف الدنيا للقبة المذكورة مقرنصات جصية نافرة، وفي أسفلها تزيينات جصية على شكل زنابق، ويقسم هذا الوسطاني إلى قسمين:

– أولهما يُسمى (العتبة)، وهو ممرّ أرضه مبلطة بدروب من الرخام والحجر الأسود والوردي، وفي الوسط حشوة من الحجر الوردي.

– والثاني يُسمى (الإيوان)، يُرقى إليه بدرجة، وقد انتظمت على أطرافه الشرقية والغربية المصاطب، وعلى المسطبة الغربية تمثال شخص يستريح وفي قدميه (قبقاب شبراوي) عال، وقد لُفّ بالمناشف، وإلى جانبه منضدة صغيرة (طربيزة) من الخشب المحفور المنزل بالصدف على شكل زهرات صغيرات، وفوق الطربيزة مرآة لها جارور (دُرج) من الخشب المصدف.

وفي منتصف الجدار الشمالي مصب من الرخام المشقف الجميل في أعلاه مقرنصات نافرة بديعة، وتتساقط من أعلى المصب المذكور المياه إلى فسقية نادرة من المرمر، وفي هذه الفسقية فوهات تنطلق منها المياه على شكل نافورة متشامخة أخّاذة، أما أرض الإيوان فمبلطة بالرخام المشقف البديع[٧٥٣]، وفي الجدار الشرقي للوسطاني الأول باب فوقه قوس من الحجر الوردي والأسود، ندخل منه إلى الوسطاني الثاني.

والوسطاني الثاني يُشكل ردهة مربعة ذات قبة مزينة بالجصّ على شكل محارب، وفي الزوايا تأخذ التزيينات شكل نقوش نافرة، والأرض مبلطة بحشوة مضلعة من الحجر الوردي، في مركزها تربيعة من الرخام الأبيض يُحيط بها الحجر الأسود، فدربٌ من الرخام، ثم من الحجر الآجري الصقيل، ثم دربٌ آخر

٧٥٣- المرجع السابق نفسه، ص/١٠٤، ١٠٧/.

من الرخام، وفي الشمال باب يُؤدّي إلى مرحاض ومقصورة ــ ذُكرا آنفاً ــ، وإلى جانبه جرنٌ رخامي فوقه رخامة مثقوبة بأنبوبين من النحاس الأصفر، أحدهما للماء البارد، والآخر للماء الحار، ويُقابله في الجنـــوب جرنٌ آخر مناظر له، إلا أنه من الحجر الأبيض، وفوقه مشجب، وإلى جانبه مصطبتان، وفي الجدار الشرقي مدخل فوقه قوسٌ من الحجر الوردي يؤدي إلى الجوّاني.

وتُظلّل الجوّاني قبتان تفصل بينهما قوس يرتكز على دعائم جانبية، القبة الأولى رباعية ذات سفوح متلاقية، وفي بداية تلك السفوح مقرنصات جميلة، والأرض تحت هذه القبة مبلطة بالحجر الأسود والوردي على شكل أربع دوائر من الحجر الوردي يُحيط بها ميلٌ من الحجر الأسود، وقطعٌ رخامية بيضاء، ثم دروب من الرخام والحجر المشقف حتى الجدران، وفي جانب الجدار الشرقي جرنٌ رخامي بيضوي أنيق ذو نقوش نافرة لأزهار وعروق نباتية متناظرة (الشكل ٣٥١)، وفوق ذلك الجرن رخامة منقوشة مثقوبة بثقبين خرج منهما أنبوبان من النحاس للماءين البارد والحار، وإلى جانبها ثُبّتَتْ خزانة معروض فيها أنموذجات من الصابون وعدة الحمام (الليفة، الكيس، الترابة الحلبية)، وفي الجنوب جرنٌ رخامي آخر مضلع فوقه رخامـــة تشـــبه رخامة الجرن الشرقي المذكرورة بنقوشها ووظيفتها، وفي أعلاها مشجب، وفي الجدار الشرقي والغربي (٤) كتبيات ذات أُطُر منقوشة بالجص النافر، كانت تُستعمل كما يبدو لوضع السرج عليها لإنـــارة الجـــوّاني، وتنفصل القبة الثانية عن القبة الأولى بقوس، مما يشكل إيواناً على طرفيه مقصورتان، وهذه القبة ذات سفوح متلاقية أيضاً، وهي ذات مقرنصات جميلة، وفي أسفلها رسوم جصية نافرة، وأرض هذا الإيوان تُشكّل حشوة من الرخام المشقف يُحيط بها درب من الحجر الوردي، ثم إطار رفيع من الرخام، ثم ميلٌ آجري، يليه دربٌ رخامي، وقد وُضِعَ في وسط الإيوان تمثال ريّس الحمام يقوم بعملية التكييس (التفريك)، وإلى جانب مـــن الجدار الشرقي كرسي الريس وطاسته، وخلفهما جرنٌ، وإلى الشرق مدخل مقصورة ذات جرنين، فوقها قبة مستديرة ذات مقرنصات أصابها تشويه، وقد جُهد في أثناء ترميمها لإعادتها إلى ما كانت عليه، وفي أرض هذه المقصورة حشوة دائرية من الحجر الوردي يُحيط بها ميلٌ أسود، ثم تشكيلة من الرخام الأسود، وفـــي جدار المقصورة الجنوبي (خلف حلل الماء) كتبية كانت مسدودة؛ لتُستعمل مغطساً، وفي الجدار الغربي من الإيوان مدخل مقصورة مقابلة ذات قبة جميلة جداً بمقرنصاتها، وفيها جرنان، وأرضها من الرخام والحجر الأسود والوردي[٧٥٤]. الشكل(١٩٣،١٩٢)

هـــ. خان أسعد باشا العظم:

ما تزال في أسواق دمشق القديمة خانات عدة من العصر العثماني، شُيّدت في القـــرنين الســـادس عشر والسابع عشر الميلاديين، إلا أن أهمها وأجملها الخانُ الذي أنشأه الوالي (أسعد باشا العظم) ــ أحـــد ولاة أسرة (آل العظم) ــ عام /١١٦٧هـــ/١٧٥٣م/[٧٥٥].

٧٥٤- كيال، **الحمامات الدمشقية**، ص/١٠٨، ١٠٩/.

٧٥٥- الريحاوي، (عبد القادر)، **خانات دمشق**، مجلة الحوليات الأثرية، المجلد٢٥، دمشق، /١٩٧٥/، ص/٤٧، ٥٠/.

يقع هذا الخان في سوق البزورية المشهور، حيث باعة العطارة والسكاكر، إلى جانب حمام تاريخي أنشئ في عصر (نور الدين محمود)، وتبلغ مساحة هذا الخان (٢٥٠٠م٢).

للخان صحنٌ مربع مسقوف بـ(٩) قباب موزعة على(٣) صفوف تحملها(٤) عضائد تتوسّط الصحن، وفي الوسط تمت القبة الوسطى بركة مضلعة ذات (١٢) ضلعاً، وتقوم القباب بمهمة إنارة الصحن لِمَا في رقباتها من النوافذ، وما في قمّتها من المناور[٧٥٦]، ويُلاحظ أن (٣) من القباب ذَهَبَ التسقيف عنها، وغُطّيت بسقف جملوني، وتقول بعض الروايات إنها لم تكتمل أصلاً[٧٥٧].

ولهذا الخان بوابة فخمة على شكل إيوان معقود بالمقرنصات الحجرية، ضمن قنطرة مؤلفة من عقود متراكبة من أحجار متشابكة مسننة بلونين أبيض و أسود متناوبين على أعمدة صغيرة، ويُزيّن واجهتها محرابان صغيران، وفوق البوابة نافذتان، وعلى جانبي القوس من الأعلى نوافذ مستطيلة، ومن الأسفل فتحتان مزوّدتان بفسقيتين، ويلي البوابة دهليز عريض يستوعب غرفتين للحراسة ينتهي إلى الصحن، مسقوف بالقباء المتقاطعة، وعلى جانبيه درجان إلى الطابق العلوي[٧٥٨].

ويُحيط بالصحن واجهات لطابقين من الغرف، تكسوها مداميك ملونة بالتناوب بين الأبيض والأسود، وكذا يشمل التناوب العقود الحاملة للقباب، ويتألف هذا الخان من طابقين، يحوي الطابق الأرضي مخازن تجارية واسعة عددها (٢١) مخزناً يتألف كل منها من قسمين:

- الأمامي فيه غرفة مزودة بنوافذ وشبابيك على الصحن.
- والخلفي لخزن البضائع.

وفيه أيضاً المسجد في القسم الشمالي الغربي، وله باب مفتوح على السوق، وتقع دورات المياه في ركن داخلي غير ظاهر[٧٥٩].

أما الطابق العلوي فيتألف من سلسلة من الغرف الصغيرة يتقدمها رواق يُطلّ على الصحن بقناطر ودرابزينات، وقد خُصّصت هذه الغرف في الأصل لنزول التجار.

وقد زُوّدت جدران الخان الخارجية في جهتيه الشرقية والجنوبية بالدكاكين أيضاً جزءاً من الأسواق المجاورة للخان.

ثم إن واجهة هذا الخان ومشهده الداخلي يُثيران الإعجاب بروعة الزخرفة والتنسيق اللوني، مع دراسة رائعة للفضاء الداخلي[٧٦٠]. الشكل(١٩٤)

٧٥٦- الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص/٥٠٤/.

٧٥٧- **المرجع السابق نفسه**، ص/٥٠٤، ٥٠٥/.

٧٥٨- البهنسي، **موسوعة التراث المعماري**، ج١، ص/٣٦/.

٧٥٩- الريحاوي، **خانات دمشق**، ص/٥١، ٦٠/.

٧٦٠- البهنسي، **موسوعة التراث المعماري**، ج١، ص/٣٦/.

٢. العمارة العثمانية في حلب:

كانت مدينة حلب مركزاً اقتصادياً مهماً في العهد العثماني، ازدهرت فيها الحركة العمرانية، وتوسّعت حدود المدينة، وظهرت فيها أحياء جديدة، وحفلت بالمساجد الكبيرة والصغيرة، وبالأسواق والخانات، وبالحمامات والمدارس والبيوت الفخمة الواسعة التي تمثل نهاية تطوُّر البيت العربي الإسلامي[٧٦١]، على أن مما يُميّز حلب ــ كونها مركزاً اقتصادياً مهماً ــ مجموعة كبيرة من الخانات موزعة ضمن شبكة أسواق المدينة، وبعضها موزع خارجها بين الأحياء السكنية، ولا سيما تلك التي تختص بالصناعات، والتي يُطلق عليها غالباً (القيساريات)، وأسواق حلب تشتهر بكونها مغطاة بقباء عالية من الحجر، مزوّدة بطاقات مربعة الشكل؛ لإمداد السوق بالنور، ويتخلّل قباء السقف أحياناً قباب عند التقاطع. ومن أهم المساجد في حلب:

أ. مجمع الخسروية:

لهذا الجامع أهمية خاصة؛ لكونه أول مسجد يُشيّد وفق الفن العثماني في سوريا، ولأنه من تصميم المهندس المشهور (سنان باشا)، وهو من طلائع أعماله[٧٦٢]، أمره ببنائه الوزير (خسرو باشا) حين كان والياً على حلب عام /٩٤٦هـ/١٥٣٧م/، في عهد السلطان (سليمان)، ويبدو أن عمارته اكتملت بعد ولايته؛ لوجود كتابة تُؤرّخ الانتهاء من البناء عام /٩٥٢هـ/١٥٤٦م/.

يقع الجامع قريباً من باب القلعة، وهو أشبه بالتكية؛ لاحتوائه على: مدرسة، ومسجد، ومطبخ، وغُرَفٍ للسكن، وقاعة للتدريس، مع حمامات غير مترابطة مع جسم المسجد الذي بقي مهيمناً على هذه المجموعة المعمارية[٧٦٣].

ويقوم تخطيط المسجد ذي القاعة الكبيرة المسقوفة بقبة وحيدة على مخطط حرف (T) المقلوب، مع قبة صغيرة في الأركان الخلفية عند الرواق الذي يتقدمها، والمؤلف من (٥) قباب؛ بقصد زيادة المساحة في كلا الجانبين، وترتفع المئذنة عن يمين المبنى. ويتميز فناء المسجد بشكله المستطيل[٧٦٤].

ويتألّف حَرَمُ المسجد من قاعة أبعادها (١٦×٢١م)، مزينة بالقاشاني، وقامت المئذنة العثمانية الرشيقة إلى الجهة الشمالية الغربية، ويتقدم الحرمَ الرواقُ المسقوف بـ(٥) قباب، ويحمي الباب المبني من الحجارة الملونة، عليه كتابة تذكر اسم الوزير (خسرو باشا) مع تاريخ /٩٥٢هـ/١٥٤٦م/[٧٦٥].

٧٦١- جوشقون، (يافوز)، **تقصي خطا الدولة العثمانية في حلب**، مشروع (جرد الآثار التاريخية المنشأة والمرممة في الفترة العثمانية في حلب)، يجري هذا المشروع ضمن إطار برنامج التعاون الإقليمي السوري التركي، الذي تم تمويله من قبل مستشارية هيئة تخطيط الدولة التابعة لرئاسة مجلس الوزراء، جامعة غازي عنتاب،/٢٠١٠/، ص٧.

٧٦٢- البهنسي، **المرجع السابق**، ج١، ص/٢٠٠/.

٧٦٣- طلس، **الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب**، ص/١٠٣/.

٧٦٤- عثمان،(نجوى) ، **مساجد حلب** ،معهد التراث العلمي ، حلب،/١٩٩٢/، ص/٩٩/.

٧٦٥- البهنسي، **موسوعة التراث المعماري**، ج١، ص/٢٠١/.

ب. جامع العادلية:

شُيّد في محلة السفاحية جنوب القلعة، وغير بعيد عن مجمع الخسروية، في عهد الوالي (محمود باشا) عام /٩٦٣هـ/١٥٥٥م/[٧٦٦].

يتألف من صحن فيه بركة ماء يعلوها شاذروان وقاعة للصلاة مربعة ضلعها (٢٣م) مسقوفة بقبة واحدة مفلطحة يتقدمها رواق مزدوج مرتفع، والحرم مزخرف بالقاشاني، والصحن فيه رواقان بقبتين، وللمسجد مئذنة واحدة على شاكلة مآذن العصر العثماني من حيث الشكل، أما البوابة فمفتوحة ضمن إيوان ذي عقد نصف دائري ومعقود بالمقرنصات[٧٦٧].

ج. جامع البهرمية:

شُيّد في منطقة أسواق المدينة، بمحاذاة محلة الجلوم من المدينة القديمة، في عهد الوالي (بهرام باشا)، عام /٩٨٨هـ/١٥٨٠م/ (الشكل ٣٦١)، ويُشبه في تصميمه التكايا؛ لأن صَحْنَهُ محاطٌ بغُرَفٍ صغيرة يتقدمها رواق، أما قاعة الصلاة فمربعة ومسقوفة بقبة وحيدة، إلا أن محرابها وُضع ضمن إيوان يبرز نحو الخارج[٧٦٨]، وهذا يُعدّ اختلافاً في التخطيط عن غيره من المساجد العثمانية[٧٦٩]؛ إذ إن قاعة الصلاة مسقوفة بقبة وحيدة يتقدمها رواق من (٣) قباب، وعلى جانبي المسجد إيوانان ضُمّ أحدهما إلى قاعة الصلاة حديثاً (الشكل ٣٦٢)، ويتوسط صحن المدرسة بركة ماء مربعة، ويُحيط به رواق على أعمدة وقناطر تمتدّ وراءه حجرات السكن التي تُقارب (٤٠) غرفة، وللمسجد مئذنة وحيدة أسطوانية على شاكلة المآذن العثمانية، أُقيمت في الركن الشمالي الغربي (الشكل ٣٦٣)، وما زال البناء في حال جيدة، إلا أن القطاع الشمالي أُزيل منذ بضع سنين؛ من أجل توسعة الشارع المجاور[٧٧٠]، وقد استُخدم القاشاني في زخرفة قاعة الصلاة، وهناك لوحة على شكل نصف دائرة، فيها زخارف نباتية وهندسية وكتابية.

د. خان الوزير:

يقع في سويقة علي، في اتجاه باب الفرج، إلى الشمال الغربي من قلعة حلب، وشرق الجامع الكبير، أي بين القلعة والجامع، ويُعرف بـ(خان الوزير) نسبة إلى الوالي والوزير العثماني (قره مصطفى) الذي شيّده عام /١٠٩٣هـ/١٦٨٢م/[٧٧١].

ويُعدّ خان الوزير أحد أضخم الخانات في حلب والعالم الإسلامي، تبلغ مساحته حوالي (٤٥٠٠م٢)، ويمتاز بعناصره المعمارية والزخرفية[٧٧٢].

٧٦٦- الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص/٥١٧/.

٧٦٧- البهنسي، **المرجع السابق**، ج٢، ص/٣٦٠/.

٧٦٨- الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص/٥١٣/.

٧٦٩- الريحاوي، **العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا**، ص/٢٣١/.

٧٧٠- عثمان، **مساجد حلب**، ص/١٠٣/.

٧٧١- الأسدي، **أحياء حلب وأسواقها**، ص/١٩٠/.

الاتحاد الوطني لطلبة سورية
فرع جامعة دمشق
الهيئة الطلابية لكلية السياحة
٢٠٢٢ - ٢٠٢٣